

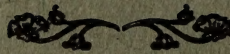
“ Broken Wings ”

Jan 28 - 1912

الإجنحة المتكسرة

تأليف

جبران خليل جبران



طبع في مطبعة جريدة مرآة الغرب - نيويورك سنة ١٩١٢

الإبغية المتكسرة

تأليف

خبرن خليل خبرن



طبع في مطبعة جريدة مرآة الغرب — نيويورك سنة ١٩١٢

To her who gave us the
sun with folded eyes: was
tender to her with
her gentle heart
bearing the weight of
the world
To M.E.H. P. dedicated this
book.

Digitized by the Internet Archive
in 2015

To her who gazes at the
sun with fixed eyes; who
Touches the fire with fingers
that tremble not; who
hears the songs of the
Absolute while in the
midst of ^{the} hollowing blind -
To M.E.H. I dedicate This
Book.

Gibran

الى التي تحرق بالشمس
باجفان جامدة • وتقبض على
النار باصابع غير مرتعشة •
وتسمع نغمة الروح « الكلي »
من وراء ضجيج العميان
M. E. H. الى
ارفع هذا الكتاب

جبران

V892.78
G447 br

572091

Forwards

توطئة

كنتُ في الثامنة عشرة عندما فتح الحبُّ عينيَّ بأشعتهِ
السحرية ، ولس نفسي لأول مرة باصابعه النارية . وكانت
سلي كرامه المرأة الأولى التي ايقظت روحي بحاسنها ، ومشت
امامي الى جنة العواطف العلوية حيث تمرُّ الايام كالأحلام
وتنقضي الليالي كالاعراس

سلي كرامه هي التي علمتني عبادة الجمال بجمالها ، وأرتني
خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت عليَّ مسمعي اول
بيت من قصيدة الحياة المعنوية

ايُّ فتى لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة
شيبته بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعدوبتها ، فتاكة

بجلاوتها؟ من منا لا يذوب حيناً الى تلك الساعة الغربية
التي اذا انتبه فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحوّلت واعماقه
قد اتسعت وانبسطت وتبطنت بانفعالات لذيدة بكل ما
فيها من مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع
والشوق والسهاد

لكل فتى سلى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته
وتجعل لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة ايامه بالانس ،
وسكينة لياليه بالانغام

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب
والاسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلى في آذان
نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات
آدم في الفردوس عندما رأيت سلى منتصبه امامي كعمود
النور ، فسلى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالاسرار
والعجائب وهي التي أفهمته كنه هذا الوجود واوقفته

كلمرآة امام هذه الاشباح ٠٠٠ حواء الاولى أخرجت آدم
من الفردوس بارادتها وانقياده اما سلى كرامه فأدخلتني الى جنة
الحب والطهر بجلاوتها واستعدادي ، ولكن ما اصاب
الانسان الاول قد اصابني والسيف الناري الذي طرده من
الفردوس هو كالسيف الذي أخافني بلمعان حده وأبعدني
كرهاً عن جنة المحبة قبل ان اخالف وصية وقبل ان ادوق
طعم ثمار الخير والشر

واليوم ، وقد مرت الاعوام المظلمة طامسةً باقدامها
رسوم تلك الايام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى
تذكارات موجعة ترفرف كالاجنحة غير المنظورة حول
رأسي ، مثيرةً تنهدات الاسى في اعماق صدري ، مستقطرةً
دموع اليأس والاسف من اجفاني ٠٠٠ وسلى - سلى الجميلة
العذبة قد ذهبت الى ما وراء الشفق الازرق ولم يبق من
آثارها في هذا العالم سوى غصات الية في قلبي وقبر رخامي

منتصب في ظلال اشجار السرو . فذلك القبر وهذا القلب
هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلى كرامه . غير ان
السكينة التي تخفر القبور لا تنفشي ذلك السر المصون الذي
أخفته الالهة في ظلة التابوت ، والاغصان التي امتصت
عناصر الجسد لا تبيح بحفيها مكنونات الحفرة . اما غصات
واوجاع هذا القلب فهي التي تتكلم وهي التي تنسكب الان
مع قطرات الحبر السوداء معلنة للنور اشباح تلك المأساة التي
مثلها الحب والجمال والموت

فيا اصدقاء شبيبي المنتشرين في بيروت اذا مررتم بتلك
المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا
ببطء كيلا تزعج اقدامكم رفات الراقدين تحت اطباق
الثرى وقفوا متهميين بجانب قبر سلى وحيوا عني التراب الذي
ضم جثمانها ثم اذكروني بتهددة قائلين في نفوسكم : ههنا
دُفنت آمال ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما

وراء البحار ، وههنا توارت امانيه وانزوت افراحه وغارت
دموعه واضمحلّت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء
نمّو كآبتهُ مع اشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر
تترف روحه كل ليلة مستأنسة بالذكري ، مردّدة مع
اشباح الوحشة ندبات الحزن والاسى ، نائمةً مع الغصون
على صبية كانت بالامس نعمةً شجية بين شفتي الحياة فاصبحت
اليوم سرّاً صامتاً في صدر الارض

استخلفكم يارفاق الصبا بالنساء اللواتي احبتهنّ قلوبكم
ان تضعوا اكاليل الازهار على قبر المرأة التي احبها قلبي —
فرب زهرة تلقونها على ضريح منسيّ تكون كقطرة الندى
التي تسكبها اجفان الصباح بين اوراق الورد الذابلة

Journal melancholy

٢

الكتابة الخرساء

انتم ايها الناس تذكرون فجر الشيبية فرحين باسترجاع
رسومه متأسفين على انقضائه ، اما انا فاذكره مثلما يذكر
الحرُّ المعتوق جدران سجنه وثقل قيوده . انتم تدعون
تلك السنين التي تجيء بين الطفولية والشباب عهداً ذهبياً
يهزأ بمتاعب الدهر وهو اجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس
المشاغل والهموم مثلما تجناز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة
سائرةً نحو البساتين المزهرة ، اما انا فلا استطيع ان ادعو
سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن
قلبي وثور كالعواصف في جوانبه وتكاثر نامية بنموه ولم
تجد منفذاً تنصرف منه الى عالم المعرفة حتى دخل اليه الحب

وفتح ابوابه وأنار زواياه ، فالحب قد عنق لساني فنكلت
ومزق اجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتهدت وشكوت
انتم ايها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات
وجوانب الشوارع التي رأت العابكم وسمعت همس طهوركم ،
وانا ايضاً اذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما أغمضت
عيني عن هذا المحيط الا ورأيت تلك الاودية المملوءة
سحراً وهيبه ، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو
العلاء ، ولاصممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع الا وسمعت
خرير تلك السواقي وحفيف تلك الغصون . ولكن هذه
المحاسن التي اذكرها الان واشوق اليها شوق الرضيع الى
ذراعي أمه هي التي كانت تعذب روعي المسجونة في
ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما
يرى اسراب البزاة تسبح حررة في الخلاء الواسع - وهي
التي كانت تملأ صدري باوجاع التأمل ومرارة التفكير

وتنسج باصابع الحيرة والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط
حول قلبي — فلم اذهب الى البرية الا وعدتُ منها كثيراً
جاهلاً أسباب الكتابة . ولا نظرتُ مساءً الى الغيوم المتلوّنة
باشعة الشمس الا وشعرتُ بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني
الانقباض . ولا سمعتُ تغريدة الشحرور او أغنية الغدير
الا ووقفتُ حزناً لجهلي موحيات الحزن

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة —
وقد يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون امواتاً ويعيشون
كالا جساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن اذا كانت
الغباوة العمياء قاطنةً في جورا العواطف المستيقظة تكون
الغباوة اقسى من الهاوية وامرّ من الموت . والصبي الحساس
الذي يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو انعكس المخلوقات امام
وجه الشمس لان نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين
متباينتين قوة خفية تخلق به السحاب وترية محاسن

الكائنات من وراء ضباب الاحلام ، وقوة ظاهرة نقيده
بالارض وتعمر بصيرته بالغبار ونتركه ضائعاً خائفاً في
ظلمة حالكة

للكتابة ايادٍ حريرية الملامس قوية الاعصاب نقبض
على القلوب وتوئلمها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما انها
اليقة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصب امام عوامل
الوحدة وتأثيرات الكتابة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها
من الكمام ترتعش امام النسيم وتفتح قلبها لاشعة الفجر وتضم
اوراقها بمرور خيالات المساء ، فإن لم يكن للصبي من الملاهي
ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الاميال كانت
الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال
العناكب ولا يسمع من زواياه سوى ديب الحشرات
اما تلك الكتابة التي اتبعت ايام حدثي فلم تكن ناتجة
عن حاجتي الى الملاهي لانها كانت متوفرة لدي . ولا عن

افتقاري الى الرفاق لانني كنت اجدهم اينما ذهبت ، بل
هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تجب الي
الوحدة والانفراد وتميت في روعي الاميال الى الملاهي
والالعب وتخلع عن كتفي اجنحة الصبا وتجعلني امام الوجود
كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوءه المحزن رسوم الاشباح
والوان الغيوم وخطوط الاغصان ولكنه لا يجد ممراً يسير
فيه جدولاً مترنماً الى البحر

هكذا كانت حياتي قبل ان ابلغ الثامنة عشرة ، فتلك
السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لانها اوقفتني
متأملاً تجاه هذا العالم وأرتني سبل البشر ومروج اميالمهم
وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وثقاليدهم

في تلك السنة ولدت ثانية والمرء ان لم تجبل به الكآبة
ويتمخض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل
حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان

في تلك السنة شاهدتُ ملائكة السماء تنظر اليَّ من
وراء اجفان امرأة جميلة وفيها رأيت ابالسة الجحيم يضجون
ويترا كضون في صدر رجل مجرم - ومن لا يشاهد الملائكة
والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظلُّ قلبه بعيداً عن
المعرفة ونفسه فارغة من العواطف

يدُ القضاء
٣
للمسألة
٩٠٠
٥٥

كنتُ في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ،
وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين
المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء . وكانت اشجار
اللوز والتفاح قد اكتست بجمل بيضاء معطرة فبات بين
المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة
عرائس وزوجات لابناء الشعر والخيال

الربيع جميل في كل مكان ولكنه أكثر من جميل في
سوريا . . . الربيع روح اله غير معروف تطوف في الأرض
مسرعة وعندما تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الورا
مستأنسة بارواح الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة

مع جداول اليهودية باناشيد سليمان ، الحالدة ، مرددة مع ارز
لبنان تذكارات المجد القديم

وبيروت في الربيع اجمل منها في ما بقي من الفصول
لانها تخلو فيه من اوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين
امطار الاول وحرارة الثاني كصبيحة حسناء قد اغتسلت بمياه
الغدیر ثم جلست على ضفته تجفف جسدها باشعة الشمس
ففي يوم من تلك الايام المفعمة بانفاس نيسان المسكرة
وابتساماته المحببة ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً
عن ضجة الاجتماع . وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام
خطوط آماننا وامايننا دخل علينا شيخٌ جليل في الخامسة
والستين من عمره تدل ملابسه البسيطة وملاحه المتجعدة
على الهيبة والوقار ، فوقف احتراماً وقبيل ان اصاحه مسلماً
نقدم صديقي وقال « حضرته فارس افندي كرامه » ثم لفظ
اسمي مشفوعاً بكلمة ثناء ، فاحدق بي الشيخ هنيهة لامساً

باطراف اصابعه جهته العالية المكحلة بشعر ابيض كالثلج
كأنه يريد ان يسترجع الى ذاكرته صورة شيءٍ قديمٍ مفقود ،
ثم ابتسم ابتسامة سرور وانعطاف واقترب مني قائلاً « انت
ابن صديق حبيب قديم صرفتُ ربيع العمر برفقته فما اعظم
فرحي بهرآك ، وكم انا مشتاق الى لقاء ابيك بشخصك »
فتأثرتُ لكلامه وشعرتُ بجاذبٍ خفيٍّ يدنيني اليه
بطأئنةٍ مثلما تقود الغريزةُ العصفورَ الى وكره قبيل مجيء
العاصفة . ولما جلسنا أخذ يقصُّ علينا احاديث صداقته
لوالدي متذكراً ايام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا
اخبار اعوام قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره . .
ان الشيوخ يرجعون بالفكر الى ايام شبابهم رجوع الغريب
المشتاق الى مسقط رأسه ويميلون الى سرد حكايات الصبا
ميل الشاعر الى تنعيم ابلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح
في زوايا الماضي الغابر لان الحاضر يمرُّ بهم ولا يلتفت

والمستقبل يبدو لآعينهم متشجراً بضباب الزوال وظلمة القبر
وبعد ساعة مرّت بين الاحاديث والتذكارات مرور
ظل الاغصان على الاعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ،
ولما دنوت منه مودعاً اخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي
قائلاً « انا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني ارجوان
استعريض عن بعادة الطويل بزياراتك الكثيرة »

فانحيتُ شاكراً واعدأً بتميم ما يجب على الابن نحو
صديق ابيه

ولما خرج فارس كرامه استزدتُ صاحبي من اخباره
فقال بلهجة يساورها التحذر « لا اعرف رجلاً سواه في
بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة مثرياً . هو واحد
من القليلين الذين يجيئون هذا العالم ويغادرونه قبل ان
يلا مسوا بالاذى نفس مخلوق - ولكن هولاء الرجال
يكونون غالباً تعساءً مظلومين لانهم يجهلون سبل الاحتيال

التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم . . . ولفارس كرامه ابنة
وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة وهي تشابهه
بالاخلاق وليس بين النساء من يماثلها رقةً وجمالاً - وهي
ايضاً ستكون تاعسة لان ثروة والدها الطائلة توقفها الان
على شفير هاوية مظلمة مخيفة »

لفظ صديقي الكلمات الاخيرة وظهرت على محياه لوائح
الغم والاسف ثم زاد قائلاً « فارس كرامه شيخ شريف
القلب كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء
الناس كالاعمى وتوقفه مطامعهم كالاخرس . اما ابنته
فتخضع ممثلة لارادته الواهنة على رغم كل ما في روحها
الكبيرة من القوى والمواهب . وهذا هو السر الكريه الكامن
وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم هذا السر رجلٌ يأتلف
في شخصه الطمع بالرياء والخبث بالدهاء . وهذا الرجل هو
مطران تسير قبائمه بظل الانجيل فتظهر للناس كالفضائل .

هو رئيس دين في بلاد الاديان والمذاهب تخافه الارواح
والاجساد وتخرُّ لديه ساجدةً مثلما تُنحني رقاب الانعام امام
الجزَّار . ولهذا المطران ابن اخ نتصارع في نفسه عناصر
المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والافاعي على جوانب
الكهوف والمستنقعات وليس بعيداً اليوم الذي ينتصب فيه
المطران بملابسه الحبرية جامعاً ابن اخيه عن يمينه وابنة
فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الاثيمة اكليل الزواج
فوق رأسيهما مقيداً بسلاسل التكهين والتعزيم جسداً طاهراً
بجيفة منننة جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية
بذات ترابية واضعاً قلب النهار في صدر الليل . . هذا كل
ما استطيع ان اقله لك الان عن فارس كرامه وابنته فلا
تسلي اكثر من ذلك لان ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب
الموت الخوف من الموت «

وحول صدقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء

كأنه يبحث عن اسرار الايام والليالي بين دقائق الاثير
فقتتُ اذ ذاك من مكاني ولما أخذتُ يده مودعاً قلت
له « غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدى له واحتراماً
للتذكريات التي ابقمتها صداقته لوالدي »

فبهت بي الشاب دقيقةً وقد تغيرت ملامحه كأن
كلماتي القليلة البسيطة قد اوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ،
ثم نظر في عيني نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة
وخوف - نظرة نبي يرى في اعماق الارواح ما لا تعرفه
الارواح ، ثم ارتعشت شفتاه قليلاً وامكنه لم يقل شيئاً
فتركته وسرتُ نحو الباب بافكار متضعضة ، وقبيل ان
التفت الى الوراء رأيتُ عينيه ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة
الغريبة - تلك النظرة التي لم افهم معانيها حتى عتقت نفسي
من عالم المقاييس والكمية وطارت الى مساح الملائح الاعلى
حيث نتفاهم القلوب بالنظرات ونمو الارواح بالتفاهم

At the Threshold
of the Temple.



في باب الهيكل



وبعد ايام وقد ملئت الوحدة وتعبت اجفاني من
النظر الى اوجه الكتب العابسة علوتُ مركبة طالباً منزل
فارس كرامه ، حتى اذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث
يذهب القوم للتزّه حوّل السائق وجهة فرسيه عن الطريق
العمومية فسارا خبياً على ممر تظله اشجار الصفصاف وتمايل
على جانبيه الاعشاب والدوالي المتعرشة وازاهر نيسان المبتسمة
بشغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب
وبعد دقيقة وقفت المركبة امام منزل منفرد تحيط به
حديقة مترامية الاطراف تتعاقب في جوانبها الاغصان وتعطر
فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين

ما سرتُ بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر
فارس كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة
في تلك البقعة المنفردة قد اعلن له قدومي - فهش متأهلاً
وقادني مترجباً الى داخل الدار ونظير والد مشتاق اجلسني
بقربه يحدثني مستفسراً عن ماضي مستطالاً عما مقاصدي في مستقبل
فكنتُ أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنعمة الاحلام والاماني
التي يترنم بها الفتيان قبل ان تقذفهم امواج الخيال الى شاطئ
العمل حيث الجهاد والنزاع . . للشبيبة اجنحة ذات ريش
من الشعر واعصاب من الاوهام ترتفع بالفتيان الى ما وراء
الغيوم فيرون الكيان مغموراً باشعة متلونة بالوان قوس القزح
ويسمعون الحياة مرتلة اغاني المجد والعظمة ولكن تلك
الاجنحة الشعرية لا تلبث ان تمزقها عواصف الاخبار
فيهبطون الى عالم الحقيقة - وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى
فيها المرء نفسه مصغرةً مشوهة

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترتدي ثوباً من الحرير الابيض الناعم ومشت نحوي ببطء فوقفتُ ووقف الشيخ قائلاً « هذه ابنتي سلى » وبعد ان لفظ اسمي شفعه بقوله « ان ذلك الصديق القديم الذي حجبتُه عني الايام قد عادت وأبانتُه لي بشخص ابنه فاناً أراه الان ولا أراه » . فتقدّمت الصبية اليّ وأحدقت بعينيّ هنيهةً كأنها تريد ان تستنطقهما عن حقيقة امري وتعلم منهما اسباب مجيئي الى ذلك المكان ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومةً فأحسستُ عند ملامسة الاكف بعاطفة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلى قد أدخلت معها الى تلك الغرفة روحاً علوية توغز الصمت والتهيب وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمةً « كثيراً ما

حدثني والدي عن ابيك معيداً على مسمعي حكايات شبابها،
فان كان والدك قد اسمعك بتلك الوقائع لا يكون هذا اللقاء
هو الاول بيننا»

فسرّ الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال
« ان سلى روحية الاميال والمذاهب فهي ترى جميع الاشياء
سابقةً في عالم النفس »

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كليّ ورقة
متناهية كأنه وجد في سرّاً سحرياً يرجعه على اجنحة
الذكري الى ربيع ايامه الغابرة

كان ذلك الشيخ يحدق بي مسترجعاً اشباح شبابه
وانا اتأمله حالماً بمستقبلي . كان ينظر اليّ مثلما تخيم اغصان
الشجرة العالية المملوءة بماّتي الفصول فوق غرسة صغيرة
مفعمة بعزم هاجع وحياة عمياء . شجرة مسنة راسخة الاعراق
قد اخبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف

الدهر وانوائه . وغرسة ضعيفة لينة لم تر غير الربيع ولم
ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر
اما سلى فكانت ساكتة تنظر الي تارة وطوراً الى
ابيهما كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة
وأخر فصل منها

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق
والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم
لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو علي
اخباره فيذهلني وانا اترنم امامه باغاني شببتي فاطربه ،
وسلى جالسة بقرب تلك النافذة تنظر الينا بعينها الحزبتين
ولا تحترك وتسمع احاديثنا ولا نتكلم كأنها عرفت ان للجمال
لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاه
والالسنه - لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها
شعوراً صامتاً مثلما تجذب البحيرة الهادئة اغاني السواقي الى

اعماقها وتجعلها سكوتاً ابدياً . ان الجمال سرٌّ نفهه ارواحنا
وتفرح به وتنمو بتأثيراته اما افكارنا فتقف امامه محارةً
محاولةً تحديده وتجسيده بالالفاظ ولكنها لا تستطيع - هو
سيالٌ خافٍ عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة
المنظور . الجمال الحقيقي هو اشعةٌ تنبعث من قدس اقداس
النفس وتير خارج الجسد مثلما تنبتق الحياة من اعماق
النواة وتكسب الزهرة لوناً وعطراً - هو تفاهم كلي بين
الرجل والمرأة يتم بلحظةٍ وبلحظةٍ يولد ذلك الميل المترفع عن
جميع الاميال - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً .
فهل فهمت روعي روح سلمي في عشية ذلك النهار فجعلني
التفاهم ان اراها اجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة
الشبيبة التي تجعلنا نتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها ؟
هل اعتمني الفتوة فتوهمتُ الاشعة في عيني سلمي والحلاوة
في ثغرها والرقعة في قدها ام هي تلك الاشعة وتلك الحلاوة

وتلك الرقة التي فتحت عيني لتريني افراح الحب واحزانه ؟
لا ادري ولكنني اعلم بانني شعرت بعاطفة لم اشعر بها قبل
تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي بهدوء
يشابه رفرقة الروح على وجه الغمر قبل ان تبتدىء الدهور .
ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادي وتعاستي مثلما ظهرت
وتناسخت الكائنات بارادة ذلك الروح

هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلى لليرة
الأولى وهكذا شاءت السماء وعنقتني على حين غفلة من
عبودية الحيرة والحداثة لتسيرني حراً في موكب المحبة
فالمحبة هي الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس
الى مقام سام لا تبلغه شرائع البشر ونقايلهم ولا تسود
عليه نواميس الطبيعة واحكامها

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال
بصوت تعانقه رنة الاخلاص « الآن وقد عرفت الطريق

الى هذا المنزل يجب ان تأتي اليه شاعراً بالثقة التي نقودك
الى بيت ابيك وان تحسبني وسلي كوالدٍ واختٍ لك —
أليس كذلك يا سلى ؟ »

فاحت سلى رأسها ايجاباً ثم نظرت الي نظرة غريب
ضائع وجد رقيقاً يعرفه

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النعمة
الاولى التي اوقفتني بجانب ابنته امام عرش المحبة . هي
استهلال الاغنية السماوية التي انتهب بالندب والرثاء —
هي القوة التي شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي
الأناء الذي شربنا فيه الكوثر والعلم

وخرجتُ فشيوعي الشيخ الى اطراف الحديقة فودعتها
وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتمش شفتا العطشان بلامسة
حافة الكأس



The white
flame

الشعلة البيضاء

وانقضى نيسان وانا ازور منزل فارس كرامه والتقي
بسلي واجلس قبالها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها، معجباً
بمواهبها، مصغياً لسكينة كاتبها شاعراً بوجود ايدٍ خفية
تجذبني اليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً
من معاني جمالها وسراً علوياً من اسرار روحها، حتى
اصبحت امام عيني كتاباً اقرأ سطورهِ واستظهر آياته
واترجم بنغمته ولا استطيع الوصول الى نهايته

ان المرأة التي تمنحها الالهة جمال النفس مشفوعاً بجمال
الجسد هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالحبّة ونلسها بالطهر
وعندما نحاول وصفها بالكلام تخنفي عن بصائرنا وراء ضباب
الحيرة والالتباس . وسلي كرامه كانت جميلة النفس والجسد

فكيف اصفها لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل اجنحة الموت ان يستحضر تغريدة البلبل وهمس الوردة وتنهدة الغدير ؟ أ يقدر الأسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسيمات الفجر ؟ ولكن أليس السكوت اصعب من الكلام ؟ وهل يعني التهييب عن اظهار خيالٍ من خيالات سلى بالالفاظ الواهية اذا كنت لا تستطيع ان ارسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ ان الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس اذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى كانت سلى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كاشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حرقاتها بطيئة متوازنة اشبه شيء بمقاطع الاحان الاصفهانية . وصوتها منخفضاً حلواً نقطعه التهدات فينسكب من بين شفثها القرمزيتين مثلما تتساقط قطرات الندى عن تيجان الزهور بمرور تموجات الهواء . ووجهها — ومن ياترى

يستطيع ان يصف وجه سلى كرامه ؟ بأية الفاظٍ نقدر ان
نصوّر وجهاً حزيناً هادئاً محبوباً وليس محبوباً بنقاب
من الاصفرار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر ان نتكلم عن ملامح
تعلن في كل دقيقة سرّاً من اسرار النفس الكبيرة المتألّمة في
داخل الجسد وتذكر الناظرين اليها بعالم روعيٍ بعيد عن
هذا العالم ؟ ان الجمال في وجه سلى لم يكن منطبقاً على
المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كالحلم
او كالروّيا او كفكر علوي لا يقاس ولا يُحدّد ولا يُنسخ
بريشة المصوّر ولا يتجسم برخام الحفار . جمال سلى لم يكن
في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في
عينها الكبيرتين بل في النور المنبعث منهما . ولا في شفّتها
الورديتين بل في الحلاوة السائلة عليهما . ولا في عنقها
العاجي بل في كيفية انحنائه قليلاً الى الامام . جمال سلى
لم يكن في كمال جسدها بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة

بيضاء مثقفة ساجدة بين الارض واللا نهاية . جمال سلى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة . واصحاب النبوغ تعساء مهما تسامت ارواحهم تظل مكنتفة بغلاف من الدموع

وكانت سلى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها كان موسيقياً ينتقل بجليسها الى مسارح الاحلام البعيدة ويجعله ان يصغى لنبضات قلبه ويرى خيالات افكاره وعواطفه منتصبه امام عينيه

اما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلى وتساور اخلاقها فهي الكتابة العميقة الجارحة ، فالكتابة كانت وشاحاً معنوياً ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبهً وغرابةً وتظهر اشعة نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء ضباب الصباح

وقد اوجدت الكآبة بين روجي وروح سلمي صلة
المشابهة فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ،
ويسمع بصوته صدع مخبآت صدره ، فكان الالهة قد
جعلت كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير
انساناً كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روجه
ان النفس الحزينة المتألّمة تجد راحة بانضمامها الى نفس
اخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستأنس
الغريب بالغريب في ارض بعيدة عن وطنيهما - فالقلوب
التي تدنيها اوجاع الكآبة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة
الافراح وبهرجتها فرابطة الحزن اقوى في النفوس من
روابط الغبطة والسرور . والحب الذي تغسله العيون
بدموعها يظل طاهراً وجميلاً وخالداً

— ٣٢ —
The Tempest
٦
العاصفة

وبعد ايام دعاني فارس كرامه الى مناولة العشاء في منزله فذهبت ونفسي جائعة الى ذلك الخبز العلوي الذي وضعتہ السماء بين يدي سلمى . — ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بافواه افئدتنا فنزداد جوعاً — ذلك الخبز السحري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانتي الطلياني وسافو اليونانية فالتهمت احشاؤهم وذابت قلوبهم — ذلك الخبز الذي عجنته الالهة بجلاوة القبل ومرارة الدموع واعدته ما كلاً للنفوس الحساسة المستيقظة لتفرحها بطعمه وتعذبها بتأثيره

ولما بلغتُ المنزل وجدت سلى جالسةً على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد اسندت رأسها الى عمدة

شجرة فبانت بثوبها الابيض كواحدة من عرائس الخيال
تحفر ذلك المكان . فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها
جلوس مجوسي متهيب امام النار المقدسة . ولما حاولت
الكلام وجدت لساني منعقداً وشفتي جامدتين فاستأنستُ
بالسكوت لان الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من
خاصته المعنوية عندما يتجسم بالالفاظ المحدودة . ولكنني
شعرتُ بان سلمي كانت تسمع في السكينة مناجاة قلبي المتواصلة
وتشاهد في عيني اشباح نفسي المرتعشة

وبعد هنيهة خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى
نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده اليّ كأنه يريد ان
يبارك بها ذلك السر الخفي الذي يربط روحي بروح ابنته
ثم قال مبتسماً « هلم يا ولدي الى العشاء فالطعام ينتظرنا »
فقمنا وتبعناه وسلمي تنظر اليّ من وراء اجفان مكحولة
بالرقة والانعطاف كأن لفظة « يا ولدي » قد ايقظت في

داخلها شعوراً جديداً عذباً يكتنف محبتها لي مثلما تحضن
الام طفلها

جلسنا الى المائدة ناكل ونشرب وتحدث - جلسنا
في تلك الغرفة نتلذذ بالوان الطعام الشهية وانواع الخمر
المعتقة وارواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن
هذا العالم وتحلم بما في المستقبل وتأهب للوقوف امام مخاوفه
واهواله . ثلاثة اشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم
من الحياة وتنفق سرائرهم بانفاق قلوبهم بالمودة والمحبة .
ثلاثة من الضعفاء الابرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً
وهذه هي المأساة المستتبة على مرشح النفس . شبح جليل
شريف يجب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في
العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحقق به
لترى ما ينبغي لها من الغبطة والشقاء - وفتي كثير
الاحلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يجرّك

جناحيه ليظير ساجماً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا
يستطيع النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة
في منزل منفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجي وتحديق
به عيون السماء . ثلاثة ياكلون ويشربون وفي اعماق
صحوهم وكؤوسهم قد اخفي القدر المرارة والاشواك

ولم تنته من العشاء حتى دخلت علينا احدي
الخادمات وخاطبت فارس كرامه قائلةً « في الباب رجل
يطلب مقابلتك يا سيدي »

فسأها بسرعة « من هو هذا الرجل » فاجابت « اظنه
خادم المطران يا سيدي » . فسكت دقيقة واحدق بعيني
ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من
الاسرار ثم التفت نحو الخادمة وقال « دعيه يدخل »

فعدت الخادمة وبعد هنيهة ظهر رجل باثواب
مزر كشة وشارب معكوف الطرفين فسلم منحنياً وخاطب

فارس كرامه قائلاً « قد بعثني سيادة المطران بمركبته
الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه فهو يريد
ان يباحثك بأمر ذات اهمية »

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة
وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ثم اقترب مني وقال
بصوت تساوره الرقة والحلاوة « ارجو ان اعود والفاك
ههنا ، فسلى سجد بك مؤنساً بعد باحاديثه وحشة الليل ،
ويزيل بانغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد » ثم التفت نحو
ابنته وزاد مبتسماً « أليس كذلك يا سلمى ؟ »

فاحت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً
وبصوت يضارع نعمة الناي رقةً قالت « سوف اجهد
النفس لكي اجعل ضيفنا مسروراً يا والدي »

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى
واقفةً تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اخفت المركبة

عن بصرها وراء ستائر الظلام واضمحلت ارتجاج الدواليب
بتباعد المسافة وتشرب السكون حرقنة سنابك الخيل . ثم
جلست قبالي على مقعد موشى بنسيج من الحرير الاخضر
فبانث باثوابها الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسيمات الصباح
على بساط من الاعشاب

كذا شاءت السماء نفلوت بسلي ليلاً في منزل منفرد
تحفره الاشجار وتغمره السكينة وتسير في جوانبه خيالات
الحب والطهر والجمال

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفتكر يتربق
الآخر ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث
التفاعم بين الارواح المتحابة ؟ هل هي الاصوات والمقاطع
الخارجة من الشفاه والالسنه التي تقرب بين القلوب
والعقول ؟ أفلا يوجد شيء اسمه مما تلده الافواه واطهر
مما تهتز به اوتار الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل

شعاع النفس الى النفس وتنقل همس القلب الى القلب؟ أليست هي السكينة التي فصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المحدود مقتربين من الملاء الاعلى شاعرين بان اجسادنا لا نفوق السجون الضيقة وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد؟

ونظرت سلمى اليّ وقد باحت اجفانها بسرائر نفسها ثم قالت بهدوءٍ سحريٍّ « تعال نخرج الى الحديقة ونجلس بين الاشجار لنرى القمر طالعاً من وراء الجبل »

فوقفت مطيعاً وقلت ممانعاً « أليس الافضل ان نبقى هنا يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة؟ اما الان فالظلام يججب الاشجار والازهار فلانستطيع ان نرى شيئاً » فاجابت « اذا حجب الظلام الاشجار والرياحين عن العين فالظلام لا يججب الحب عن النفس »

قالت هذه الكلمات بلمحة غريبة ثم حولت عينها

ونظرت نحو النافذة فبقيت انا صامتاً مفكراً بكلماتها مصوراً
لكل مقطع معنى راسماً لكل معنى حقيقة . ثم عادت
واحدت بي كأنها ندمت على ما قالت فحاولت استرجاع
كلماتها من اذني بسحر اجفانها . ولكن سحر تلك الاجفان لم
يسترجع تلك الالفاظ الا ليعيدها الى اعماق صدري اكثر
وضوحاً واشد تأثيراً وليبقها هناك ملتصقة بقلبي متموجة
مع عواطفي الى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر
واحد او من حاسة واحدة في داخل الانسان . كل ما
نراه اليوم من اعمال الاجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً
خفياً في عاقلة رجل او عاطفة لطيفة في صدر امرأة .
الثورات الهائلة التي اجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحريرة
تعبد كالهة كانت فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ
رجل فرد عائش بين الوف من الرجال . الحروب الموجهة

التي ثلت العروش وخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في
رأس رجل واحد . التعاليم السامية التي غيرت مسير الحياة
البشرية كانت ميلاً شعرياً في نفس رجل واحدٍ منفصلٍ
بنبوغه عن محيطه . فكرٌ واحد اقام الاهرام وعاطفة واحدة
خربت ترواده وخاطر واحد اوجد مجد الاسلام وكلمة
واحدة احرقت مكتبة الاسكندرية

فكر واحد يجيئك في سكينه الليل ويسير بك الى
المجد او الى الجنون . نظرة واحدة من اطراف اجفان امرأة
تجعلك اسعد الناس او اتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين
شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر او فقيراً بعد الغنى . . كلمة
واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة اوقفتني
بين ماضيٍّ ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات
الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد ايقظتني من سبات الحداثة
والخلو وسارت بايامي على طريقٍ جديدة الى مسارح

الحب حيث الحياة والموت

خرجنا الى الحديقة وسرنا بين الاشجار شاعر ين باصابع
النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الازهار والاعشاب
اللدنة تتمايل بين اقدامنا ، حتى اذا ما بلغنا شجرة الياسمين
جلسنا صامتين على ذلك للمقعد الخشبي نسمع تنفس الطبيعة
النائمة ونكشف بجلاوة التنهد خفايا صدرينا امام عيون
السما الناظرة الينا من وراء ازرقاق السماء

وطلع القمر اذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك
الروابي والشواطىء فظهرت القرى على اكتاف الاودية
كأنها قد انبثقت من اللاشيء . وبان لبنان جميعه من تحت
تلك الاشعة الفضية كأنه فتى متكئ على ساعده تحت
نقاب لطيف يخفي اعضاءه ولا يخفيها

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت
حقيقته بذهاب داود وسليمان والانبياء مثلما انجبت جنة

عدن بسقوط آدم وحواء . هو لفظه شعرية لا اسم لجبل
— لفظه ترمز عن عاطفة في النفس وتستحضر الى الفكر
رسو غابات من الارز يفوح منها العطر والبخور ، وابراج
من النحاس والرخام تتعالى بالمجد والعظمة ، واسراب من
الغزلان تنهادى بين الطلول والاوذية . وانا قد رأيت لبنان
في تلك الليلة مثل فكر شعري خيالي منتصب كالعلم بين
اليقظة واليقظة

كذا نغير الاشياء امام اعيننا بتغيير عواطفنا ، وهكذا
نتوهم الاشياء متشحةً بالسحر والجمال عنده الا يكون السحر
والجمال الا في نفوسنا

والتفتت اليّ سلي وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها
ومعصمها فبانت كتمثال من العاج نحتته اصابع متعب
لعشترت ربة الحسن والمحبة « لماذا لا نتكلم — لماذا لا
تحدثني عن ماضي حياتك ؟ »

فنظرتُ الى عينيها المنيرتين ومثل اخرس فاجأً
النطقُ شفثيه اجبتها قائلاً « ألم تسمعيني متكلماً مذ جئت
الى هذا المكان - أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا الى
هذه الحديقة ؟ ان نفسك التي تسمع همس الازهار واغاني
السكينة تستطيع ان تسمع صراخ روعي وضجيج قلبي »
فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت منقطع « قد
سمعتك . . نعم سمعتك . . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من
احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار »
فقلتُ بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني
ونسيت كل شيء ولم اعد اعرف سوى سلمى ولا اشعر
بغير وجودها « وانا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نعمة
عظيمة محيية جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها
اسس الارض »

فاغمضت سلمى اجفانها وظهر على شفثيها القرمزيتين

خيال ابتسامة محزنة ثم همست قائلةً « قد عرفتُ الان
بأنه يوجد شيءٌ أعلى من السماء واعمق من البحر واقوى من
الحياة والموت والزمن . قد عرفت الان ما لم اكن اعرفه
بالامس ولا احلم به »

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه اعزّ من
صديق واقرب من الاخت واحب من الحبيبة . صارت
فكراً سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً
جميلاً يجاور نفسي

ما اجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة نتولد بالمعاشرة
الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاعم
الروحي وان لم يتم هذا التفاعم بلحظة واحدة لا يتم بعام ولا
بجيل كامل

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الافق البعيد حيث
تلتقي خطوط صنين باذبال الفضاء ثم قالت « لقد كنت

لي بالامس مثل اخٍ اقترب منه مطمئناً واجلس بجانبه
في ظلال والدي . اما الان فقد شعرت بوجود شيء اقوى
واعذب من العلاقة الاخوية . قد شعرت بعاطفة غريبة
مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية عميقة مخيفة لذيدة تملأ
قلبي حزناً وفرحاً »

فاجبتها « أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف
لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي
يسير القمر حول الارض والارض حول الشمس والشمس
وما يحيط بها حول الله ؟ »

فوضعت يدها على رأسي وغرست اصابعها بشعري
وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلعب
قطرات الندى على اطراف اوراق النرجس ثم قالت « من
من البشر يصدق حكايتنا — من منهم يصدق باننا في
الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا

العقبات واجتازنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين . من
منهم يعتقد بان نيسان الذي جمعنا لاول مرة هو الشهر
الذي اوقفنا في قدس اقداس الحياة ؟ »

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني
ولو تخيرتُ في تلك الدقيقة لما فضلتُ تيجان الملوك و كليل
الغار على تلك اليد الحريرية المتلعبة بشعري - ثم اجبتها قائلاً
« ان البشر لا يصدقون حكايتنا لانهم لا يعلمون بان المحبة
هي الزهرة الوحيدة التي تنبت وتُمو بغير معاونة الفصول .
ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لاول مرة وهل هي هذه
الساعة التي اوقفتنا في قدس اقداس الحياة ؟ اما جمعت
روحينا قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة اسيري الايام والليالي ؟
ان حياة الانسان ياسلى لا تبثدى في الرحم كما انها لا
تنتهي امام القبر وهذا الفضاء الواسع المملو باشعة القمر
والكواكب لا يخلو من الارواح المتعانقة بالمحبة والنفوس

المتضامة بالتفاهم»

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركةً بين
مغارس الشعر تموجاتٍ كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل
فيزيدها نمواً وحراكاً . فأخذتُ تلك اليد براحتي ونظير
متعبد يتبرك بلثم المذبح وضعتها على شفتي الملتهبتين وقبلتها
قبلة طويلة عميقة خرساء تذيب بجزارتها كل ما في القلب
البشري من الاحساس وتنبه بعذوبتها كل ما في النفس
الالهية من الطهر

ومرت علينا ساعة كل دقيقة منها عام شغف ومجبة
تساورنا سكينه الليل وتغمرنا اشعة القمر وتحيط بنا الاشجار
والرياحين حتى اذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها الانسان
كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافو وهدير
مركبة تقرب منا مسرعةً فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة
وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام الى هذا العالم الواقف

بمسيره بين الحيرة والشقاء فعرفنا بان الوالد الشيخ قد عاد من
دار المطران فنهضنا وسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله
وبلغت المركبة مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه
وسار نحونا منحني الرأس بطيء الحركة ونظير متعب رازح
تحت حملٍ ثقيلٍ نقدم نحو سلمى ووضع كلتا يديه على
كتفها واحدق بوجهها طويلاً كأنه يخاف ان تغيب
صورتها عن عينيه الضئيلتين ثم انسكبت دموعه على وجنتيه
المتجعدتين وارتجفت شفتاه بابتسامة محزنة وقال بصوت
مخنوق « عما قريب يا سلمى - عما قريب تخرجين من بين
ذراعي والدك الى ذراعي رجل آخر - عما قريب تسير
بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد الى ساحة العالم الوسيعة
فتصبح هذه الحديقة مشتاقه الى وطء قدميك ويصير
والدك غربياً عنك لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى
فلتباركك السماء وتحرسك »

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت
عينها كأنها رأت شبح الموت منتصباً امامها . ثم شهقت
وتلملت متوجعةً كعصفور رماه الصياد فهبط على
الحضيض مرتجفاً بالآمه - وبصوت نقطعه الغصات
العميقة صرخت قائلةً « ماذا نقول ؟ ماذا تعني ؟ الى اين
تريد ان تبعث بي ؟ »

ثم شخصت به كأنها تريد ان تزيل بنظراتها الغلاف
عن مخبات صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون
الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهةً « قد فهمت الان . .
قد عرفت كل شيء . . ان المطران قد فرغ من حبك
قضببان القفص الذي اعده لهذا الطائر المكسور الجناحين
فهل هذه هي ارادتك يا والدي ؟ »

فلم يجبها بغير التهنيدات العميقة ثم ادخلها الدار واشعة
الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة فبقيت انا واقفاً بين

الأشجار والحيرة ثلأعب بعواطفي مثلما ثلأعب العواصف
باوراق الخريف . ثم اتبعتهما الى القاعة - وكلا اظهر
بمظهر طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات اخذت يد
الشيخ مودعاً ونظرت الى سلمى نظرة غريقٍ تلف نحو
نجم لامع في قبة الفلك . ثم خرجت دون ان يشعرا
بمخروجي ولكنني ما بلغت اطراف الحديقة حتى سمعت
صوت الشيخ منادياً فالتفت واذا به يتبعني فعدت الى
لقاءه ولما دنوت منه امسك بيدي وقال بصوت مرتعش
« سامحني يا ابني فقد جعلت خنام ليلتك مكتنفاً بالدموع
- ولكنك سوف تجيء الي دائماً - أليس كذلك ؟ ألا
تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً الاً من الشيخوخة
المرزنة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة
كما ان الصباح لا يلتقي بالساء - اما انت فسوف تجيء
الي لتذكرني بايام الصبا التي صرفتها بقرب ابيك وتعيد علي

مسمعي اخبار الحياة التي لم تعد تحسبني من ابناءها . . أليس
كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى واصبح وحيداً
منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟ »

لفظ الكلمات الاخيرة بصوت منخفض منقطع ولما
أخذت يده وهزتها صامتاً احسست بقطرات من الدموع
السخينة قد تساقطت على يدي من اجفانه فارتعشت نفسي
في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوية عذبة محزنة تتمايل
بين ضلوعي وتتصاعد كاللهات الى شفتي ثم تعود كالغصات
الى اعماق قلبي - ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد
استدرت الدموع من اجفاني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه
المرتجفتين اعالي جبته ثم قال محولاً وجهه نحو باب المنزل
« مساء الخير . . . مساء الخير يا ابني »

ان دموعه واحدة تلمع على وجنة شيخ متجمدة لهي
اشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه اجفان الفتيان

ان دموع الشباب المزيرة هي مما يفيض من جوانب
القلوب المترعة . اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر
تنسكب من الاحداق . هي بقية الحياة في الاجساد الواهنة
الدموع في اجفان الشبية كقطرات الندى على اوراق
الوردة اما الدموع على وجنة الشيوخ فاشبه باوراق الخريف
المصفرة التي تنثرها الارياح وتذريها عند ما يقترب شتاء الحياة
واخفى فارس كرامه وراء مصارع الباب وخرجت
انا من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في اذني وجمالها
يسير كالخيال امام عيني ودموع والدها تجف ببطء على
يدي . خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس
ولكن حواء هذا القلب لم تكن يجاني لتجعل العالم كله
فردوساً . خرجت شاعراً بان تلك الليلة التي ولدت فيها
ثانية هي الليلة التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة
كذا تحيي الشمس الحقول بجرارتها وبجرارتها تميتها

The Lake of Fire

٧

بحيرة النار

كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره
الانسان علناً في نور النهار. الكلمات التي تهمسها شفاهاً في
السكينة تصير على غير معرفة منا حديثاً عمومياً . الاعمال
التي نحاول اليوم اخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً
وتنتصب في منعطفات الشوارع

كذا اعلنت اشباح الدجي مقاصد المطران بولس
غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق
الاثير اقواله واحاديثه الى احياء المدينة حتى بلغت مسمعي
ما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في
تلك الليلة المقمرة ليقاوضه بشؤون الفقراء والمعوزين او

يخبره بأمر الأرامل والأيام بل حضره بمكتبته الخصوصية
الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور
بك غالب

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وريث سوى
ابنته سلمى وقد اختارها المطران زوجةً لابن أخيه لجمال
وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها
الطائلة مستقبل منصور بك وتساعد به بأملاكها الوسيعة على
إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والأشراف

إن رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون
عليه نفوسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في
وسعهم ليحولوا نسبهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به
والمستدرين قواه وأمواله. إن مجد الأمير ينتقل بالأثر إلى
ابنه البكر بعد موته أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى
إلى الأخوة وأبناء الأخوة في حياته. وهكذا يصبح الأسقف

المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كفاعي البحر التي
تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بافواه
عديدة

عندما طلب المطران بولس يد سلمي من والدها لم يجبه
ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة وايه
والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة الى بيت
جاره او الى قصر ملك . اي رجل لا ترتعش اعماق نفسه
بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي
لاعبها طفلة وهذبها صبية ورافقها امرأة . ان كآبة الوالدين
لزواج الابنة يضارع فرحهم بزواج الابن لان هذا يكسب
العائلة عضواً جديداً اما ذلك فيسلبها عضواً قديماً عزيزاً
اجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحني امام
مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة . وكان قد اجتمع
بابن اخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه فعرف

خشونته وطمعه وانحطاط اخلاقه ، ولكن اي مسيحي يقدر
ان يقاوم اسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ؟ اي
رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً
بين الناس ؟ أ تعاند العين سهماً ولا تُفقر او تناضل اليدُ
سيفاً ولا تُقطع ؟ وهب ان ذلك الشيخ كان قادراً على
مخالفة المطران بولس والوقوف امام مطامعه فهل تكون سمعة
ابنته في مآمن من الظنون والتآويل ، وهل يظل اسمها نقياً
من اوساخ الشفاه والالسنه ؟ أو ليست جميع العناقيد العالية
حامضة في شرع بنات آوي ؟

هكذا قبض القدر على سلى وقادها عبدة ذليلة في
موكب النساء الشرقيات التاعسات . وهكذا سقطت تلك
الروح النبيلة بالحباثل بينما كانت تسبح لاول مرة على
اجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه اشعة القمر وتعطره
رائحة الازاهر

ان اموال الالباء تكون في اكثر المواطن مجلبةً لشقاء
البنين . تلك الخزائن الوسيعة التي يملأها نشاط الوالد
وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة .
ذلك الاله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب
شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلي كرامه
هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية
ثروة الوالد واماني العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً
غنياً لكانت سلى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس
مرّ اسبوع وحب سلى يجالسني في المساء منشداً على
مسمعي اغاني السعادة وينبهي عند الفجر ليربني معاني الحياة
واسرار الكيان . حبّ علويّ لا يعرف الحسد لانه غنيّ
ولا يوجع الجسد لانه في داخل الروح . ميل قويّ يغمر
النفس بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكْتفاء . عاطفة
تولد الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني ارى الارض

نعياً والعمر حلماً جميلاً . فكنت اسير صباحاً في الحقول
وأرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود . واجلس على شاطئ
البحر واسمع من امواجه اغاني الابدية وامشي في شوارع
المدينة واجد في طلعات العابرين وحر كات المشتغلين محاسن
الحياة وبهجة العمران

تلك ايام مضت كالاشباح واضمحت كالضباب ولم
يبق لي منها سوى الذكرى الائمة — فالعين التي كنت
ارى بها جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحرق بغير
غضب العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت اسمع
بها اغنية الامواج لم تعد تصغي لغير أنة الاعماق وعويل
الهاوية . والنفس التي كانت تقف متهيبة امام نشاط البشر
ومجد العمران لم تعد تشعر بغير شقاء الفقراء وتعاسة
الساقطين . فما احلى ايام الحب وما اعذب احلامها . وما امر
ليالي الحزن وما اكثر مخاوفها

وفي نهاية الاسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواظي
سرتُ مساءً الى منزل سلى كرامه — ذلك الهيكل الذي
اقامه الجمال وقدسهُ الحب لتسجد فيه النفس مصليّةً
ويركع القلب خاشعاً — ولما بلغتُه ودخلتُ الى تلك الحديقة
الهادئة احسستُ بوجود قوة تستهويني وتستميلني وتبعدني
عن هذا العالم وتدنيني ببطء الى عالم سحري خالٍ من
العراك والجهاد . ومثل متصوّف جذبتُه السماء الى مسارح
الرويا وجدتني سائراً بين تلك الاشجار المحنّكة والزهور
المتعانقة . حتى اذا ما اقتربتُ من باب الدار التفت واذا
بسلى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة الياسمين حيث
جلسنا منذ اسبوع في تلك الليلة التي اخنارتها الالهة من بين
الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي — فدنوت منها صامتاً
فلم تحترك ولم نتكلم كأنها علمت بقدومي قبل قدومي . ولما
جلست بجانبها احدقت بعينيّ دقيقةً وتهدت تنهدة طويلة

عميقة ثم عادت ونظرت الى الشفق البعيد حيث تعبت
اوائل الليل باواخر النهار. وبعد هنيهة مملوءة بتلك السكينة
السحرية التي تضم نفوسنا الى مواكب الارواح غير
المنظورة ، حولت سلى وجهها نحو ي واخذت يدي بيد
مرتعشة باردة ، وبصوتٍ يشابه تأوه جائع لا يقوى على
الكلام قالت « انظر الى وجهي يا صديقي . انظر الى وجهي
جيداً وتأمله طويلاً واقراً فيه كل ما تريد ان تفهمه مني
بالكلام . . . انظر الى وجهي يا حبيبي . . . انظر جيداً
يا أخي . . . »

فنظرتُ الى وجهها - نظرتُ طويلاً فرأيتُ تلك
الاجفان التي كانت منذ ايام قليلة تبسم كالشفاه وتحترك
كأجنحة الشحرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات
التوجع والألم . رأيتُ تلك البشرة التي كانت بالامس مثل
ثنايا الزنبقة البيضاء الفارحة بقبلات الشمس قد اصفرت

وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط . رأيت الشفتين اللتين
كانتا كزهرة اقاح تسيل عليهما الحلاوة قد يبستا وصارتا
كوردتين مرتجفتين ابقاهما الخريف على طرف الغصن .
رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كهمود العاج قد انحنى الى
الامام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف
الرأس

رأيت هذه الانقلابات الموجهة في ملامح سلى -
رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة
توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبه . ان الملامح التي
تبيح اسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالاً وملاحةً مهما
كانت تلك الاسرار موجهة وأليمة . اما الوجوه التي لا
تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون
جميلة مهما كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء . ان
الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون

الخمر . فسلى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس
طالفة من خمرة علوية تمزج بدقائقها مرارة العيش بجلاوة
النفس - كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة
الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب الا لتضع عنقها
تحت نير زوجها الحشن ، ولا تترك ذراعي امها الرؤوف
الا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية

وبقيت محققاً بوجه سلى مصغياً لانفاسها المنقطعة
صامتاً مفكراً شاعراً مثالماً معها ولها حتى احسست ان الزمن
قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم اعد
ارى سوى عينين كبيرتين محققين باعمق ، ولا اشعر بغير
يدٍ باردة مرتعشة تضم يدي ، ولم افق من هذه الغيبوبة
حتى سمعت سلى نقول بهدوءٍ « تعالَ نتحدث الآن
يا صديقي . تعالَ نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا
بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي

سيكون رفيقاً لي حتى القبر - قد ذهب الرجل الذي
اخترته السماء سبباً لوجودي ليلنقي بالرجل الذي انقته
الارض سيداً على ايامي الآتية ، ففي قلب هذه المدينة
يجتمع الان الشيخ الذي رافق شبيبتى بالشاب الذي
سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد
والخطيب على يوم القران الذي سيكون قرباً مهما جعلاه
بعيداً ، فما اغرب هذه الساعة وما اشد تأثيرها . . . في مثل
هذه الليلة من الاسبوع الغابر ، وفي ظلال هذه الياسمينه
قد عانق الحبُ رُوحى لأول مرةٍ بينما كان القدر يخطط
اول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب .
وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا الكليل
زواجي اراك جالساً بجاني واشعرُ بنفسك متموجةً حولي
كطائر ظامئٍ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماءٍ يخفزه ثعبانٌ
جائعٌ مخيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعظم اسرارها »

فاجبتها وقد تخيلتُ القنوطُ شبحاً مظلماً قابضاً على
عنق حبنا ليميته في طفوليته « سيظل هذا الطائر حائماً
مرفرفاً فوق الينبوع حتى يرضيه العطش فيرديه او يقبض
عليه اثعبان الخيف فيمزقه ويلتهمه »

فقال متأثراً وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية « لا .
لا يا صدقي فليبقَ هذا الطائر حياً . ليبقى هذا البلبل مفرداً
حتى المساء . حتى ينتهي الربيع . حتى ينتهي العالم . حتى تنتهي
الدهور . لا تخرسه لان صوته يحميني ولا توقف جناحيه لان
حفيفهما يزيل الضباب عن قلبي »

فهمستُ متنهداً « الظماء يقتله يا سلى والخوف يميته »
فاجابت والكلام يتدفق بسرعةٍ من بين شفثيها
المرتعشتين « ان ظماء الروح اعذب من ارتواء المادّة وخوف
النفس احبُّ من طمأنينة الجسد . . ولكن اسمع يا حبيبي
- اسمعني جيداً - انا واقفة الان في باب حياة جديدة لا

اعرف عنها شيئاً . انا مثل عمياء نئلس بيدها الجدران مخافة
السقوط . انا جاريةٌ أنزلي مال والدي الى ساحة النخاسين
فابتاعني رجلٌ من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل
لانني اجهله وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ولكنني
سوف اتعلم محبته . سوف اطيعه واخدمه واجعله سعيداً .
سوف اهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة ان تهب الرجل
القوي . امانت فلم تنزل في ربيع العمر ، امامك الحياة
طريقاً وسبعة مفروشة بالازهار والرياحين . سوف تخرج
الى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً منقاداً . سوف تفتكر
بحرية وبحرية تتكلم ونفعل . سوف تكتب اسمك على
وجه الحياة لانك رجل . سوف تعيش سيداً لان فاقة والدك
لا تجعلك عبداً ، وامواله لا تنزل بك الى سوق النخاسين حيث
تباع البنات وتُشترى . سوف تقترن بالصبية التي تختارها
نفسك من بين الصبايا فمسكنها صدرك قبل ان تسكنها

منزلك وتشاركها بأفكارك قبل ان تساهمها الايام الليالي «
وسكنت دقيقةً كيما تسترجع انفاسها ثم زادت بصوت
تتابعه الغصات « ولكن أهنا نفرقتنا سبل الحياة لتذهب
بك الى ابحاد الرجل وتسير بي الى واجبات المرأة ؟
أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا
تبتلع اللجة نعمة الشحرور وتثر الرياح اوراق الوردة وتسحق
الاقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفنا تلك الليلة امام وجه
القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمينه ؟ هل
تسرّعنا بالصعود نحو الكواكب فكلت اجنحنا وهبطت بنا
الى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا
ام هيجت انفاسنا نسماة الليل فانقلبت ريحاً شديدةً
لتمزقنا وتجرفنا كالغبار الى اعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية
ولم نذق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة — لم نتأمر ولم
نتمرد فلماذا نهبط الى الجحيم ؟ .. لا لا والف لا ولا ان

الدقائق التي جمعناها هي اعظم من الاجيال ، والشعاع الذي انار نفسينا هو اقوى من الظلام ، فإن فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب فالامواج تجمعنا على ذلك الشاطئ الهادئ ، وان قتلنا هذه الحياة فذاك الموت يحيينا

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحوّل مع الفصول . قلب المرأة يشابه البرية التي يتخذها الانسان ساحةً لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع اشجارها ويحرق اعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرس تربتها بالعظام والجماجم ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور والان قد قضي الأمر فماذا نفعل ؟ قل لي ماذا نفعل وكيف نفرق واي متى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غربياً اتى به المساء وابعده الصباح ؟ أم نحسب هذه العاطفة النفسية حلاً ابانه الكرى ثم اخفته اليقظة ؟

أنحسب هذا الاسبوع ساعةً سكرٍ ما لبثت ان قضت
بالصحو والانتباه ؟ ارفع رأسك لارى عينيك
يا حبيبي . افتح شفتيك لاسمع صوتك . تكلم . اخبرني .
حدثني . هل تذكرني بعد ان تغرق العاصفة سفيتي ايامنا ؟
هل تسمع حفيف اجنحتي في سكينة الليل . هل تشعر
بانفاسي متموجةً على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي لتنهدياتي
متصاعدةً بالتوجع منخفضةً بالغصات ؟ وهل ترى خيالي
قادمًا مع خيالات الظلام مضمحلًا مع ضباب الصباح ؟
قل لي يا حبيبي - قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت
نورًا لعينيّ ونعمةً لاذني وجناحاً لروحي : ماذا تكون ؟
فاجبتها وحبات قلبي تذوب في عينيّ « ساكون لك
يا سلى مثلما تريدني ان اكون »

فقلت « اريدك ان تحبني . اريدك ان تحبني الى نهاية
ايامي . اريدك ان تحبني مثلما يحب الشاعر افكاره المحزنة .

اريدك ان تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هادئ
رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . واريدك
ان تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في احشائها قبل ان
يرى النور . واريدك ان تفتكر بي مثلما يفكر الملك
الروؤف بسجين مات قبل ان يبلغه عفوه . اريدك ان تكون
لي اخاً وصديقاً ورفيقاً واريدك ان تزور والدي في وحدته
وتعزيه في انفراده لانني عما قريب ساترکه واصير غربة
عنه »

فاجبتها « سأفعل كل ذلك يا سلى . سوف اجعل
روحي غلافاً لروحك وقلبي بيتاً لجمالك وصدري قبراً
لاحزانك . سوف احبك يا سلى محبة الحقول للربيع
وسوف احبي بك حياة الازاهر بجمرة الشمس . سوف
اترغم باسمك مثلما يترغم الوادي بصدى رنين الاجراس
المتمايلة فوق كئناس القرى ، سوف اصغي لاحاديث نفسك مثلما

تصغي الشواطئ لحكاية الامواج . . ساذكرك يا سلى مثلما
يذكر الغريب المستوحش وطنه المحبوب ، والفقير الجائع
مائدة الطعام الشهية ، والملك المخلوع ايام عزه ومجده ،
والاسير الكئيب ساعات الحرية والطمأنينة . سوف افتكرك
بك مثلما يفكر الزارع باغمار السنابل وغلة البيادر ، والراعي
الصالح بالمروج الخضراء والمناهل العذبة »

كنت اتكلم وسلى تنظر الى اعماق الليل وتناؤه بين
الآونة والاخرى ونبضات قلبها تتسارع وتتهامل كأنها
امواج بحر بين صعود وهبوط ، ثم قالت « غداً تصير الحقيقة
خيالاً واليقظة حلمًا فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال
ويرتوي الظآن من جداول الاحلام ؟ »

فاجبتها قائلاً « غداً يسير بك القدر الى احضان
العائلة المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي الى ساحة العالم
حيث الجهاد والقتال . انت الى منزل رجل يسعد بجمالك

وطهر نفسك . وانا الى مكانن ايام تعذبني باحزانها وتخيفني
باشباحها . انت الى الحياة وانا الى النزاع . انت الى الانس
والإلفة وانا الى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في
وادي ظل الموت تمثالاً للحب واعبده . سأأخذ الحب سميراً
واسمعه منشداً واشربه خمراً والبسه ثوباً . عند الفجر سينبني
الحب من رقادي ويسير امامي الى البرية البعيدة . وعند
الظهيرة سيقودني الى ظل الاشجار فاربض مع العصافير
المحمية من حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب
ويسمعي نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني اشباح السكينة
سابحة في الفضاء . وفي الليل سيعانقني فانام حالماً بالعوالم
العلوية حيث تقطن ارواح العشاق والشعراء . في الربيع
سأمشي والحب جنباً لجنب مترنمين بين التلول والمنحدرات
متبعين آثار اقدم الحياة المخططة بالبنفسج والاحوان ،
شاربين بقايا الامطار بكوؤوس النرجس والزنبق . وفي

الصيف ساتكئ والحب ساندين رأسينا الى اغمار القش
مفترشين الاعشاب ملتخفين السماء ساهرين مع القمر
والنجوم . وفي الخريف سأذهب والحب الى الكروم فنجلس
بقرب المعاصر ناظرين الى الاشجار وهي تخلع اثوابها المذهبة
متأملين باسراب الطيور الراحلة الى الساحل . وفي الشتاء
ساجلس والحب بقرب المواعد تالين حكايات الاجيال
مردددين اخبار الامم والشعوب . في ايام الشبية سيكون
لي الحب مهذباً وفي الكهولة عضداً وفي الشيخوخة مؤنساً
سيظل الحب معي يا سلى الى نهاية العمر ، الى ان يجيء
الموت الى ان تجمعني بك قبضة الله «

كانت الالفاظ تتصاعد مسرعةً من اعماق نفسي
كأنها شعلات من نار تنمو وتتطير ثم تبدد وتضمحل في
زوايا تلك الحديقة وكانت سلى مصغية والدموع تنهمر
من عينيها كأن اجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام

ان الذين لم يهبهم الحبُّ اجنحةً لا يستطيعون ان يطيروا الى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه روجي وروح سلى في تلك الساعة المخزنة بافراحها المفرحة باوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب اتباعاً لا يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تُكتب لهم ، فهم وان فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما يسيل بين سطورها من الاشباح والخيالات التي لا تلبس الحبر ثوباً ولا تُتخذ الورق مسكناً . ولكن ايُّ بشري لم يرشف من خمرة الحب في احدى كاساته ؟ ايةُ نفس لم تقف متهيبةً في ذلك الهيكل المنير المرصوف بجبات القلوب المسقوف بالاسرار والاحلام والعواطف ؟ ايةُ زهرة لم يسكب الصباح قطرةً من الندى بين اوراقها ، واي ساقية تفضلُ طريقها ولا تذهب الى البحر ؟

ورفعت سلى اذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة

بالكواكب ومدت يديها الى الامام وكبرت عيناها وارتجفت
شفتاها وظهر على وجهها المصفر كل ما نفس المرأة
المظلومة من الشكوى والقنوط والألم ثم صرخت قائلة
« ماذا فعلتِ المرأة يارب فاستحقت غضبك؟ ماذا اتت من
الذنوب ليتبعها سخطك الى آخر الدهور؟ هل اقترفت جرماً
لا نهاية لفظاعته ليكون عقابك لها بغير نهاية؟ انت قويٌّ
يارب وهي ضعيفة فلماذا تبيدها بالاجوع؟ انت عظيمٌ
وهي تدبُّ حول عرشك فلماذا تسحقها بقدميك؟ انت عاصفة
شديدة وهي كالغبار امام وجهك فلماذا تذررها على الثلوج .
انت جبارٌ وهي بائسة فلماذا تحاربها؟ انت بصير عليم وهي
تائهة عمياء فلماذا تهلكها؟ انت توجدتها بالحجة فكيف بالحجة
تفنيها؟ بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها الى الهاوية
وهي جاهلة لا تدري أأنتى ترفعها وكيف تدفعها . في فمها
تنفخ نسمة الحياة وفي قلبها تزرع بزور الموت . على سبل

السعادة تسيرها راجلةً ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها .
في خنجرتها تبت نعمة الفرح ثم تغلق شفيتها بالحزن وتربط
لسانها بالكآبة . باصابعك الخفية تمنطق باللذة اوجاعها
وباصابعك الظاهرة ترسم هالات الاوجاع حول ملذاتها .
في مضجعها تخفي الراحة والسلامة وبجانب مضجعها تقيم
المخاوف والمتاعب . بارادتك تحيي اميالها ومن اميالها تتولد
عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تربيها محاسن مخلوقاتك وبمشيئتك
تنقلبُ محبتها للحسن مجاعةً مهلكةً . بشريعتك تزوج روحها
من جسد جميل وبقضائك تجعل جسدها بعلاً للضعف
والهوان . . . انت تسقيها الحياة بكأس الموت والموت بكأس
الحياة . انت تطهرها بدموعها و بدموعها تذيبها . انت تملأ
جوفها من خبز الرجل ثم تملأُ حفنة الرجل من حبات
صدرها انت انت يا رب قد فتحت عينيَّ بالمحبة
وبالمحبة اعमितني . انت قبلتني بشفتيك وبيدك القوية

صفتني . انت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه
الوردة ابنت الاشواك والحسك . انت اوثقت حاضري بروح
فتيَّ احبه و بجسد رجل لا اعرفه قيدت ايامي ، فساعدني
لاكون قوية في هذا الصراع المميت واسعفني لابقى امينة
وطاهرة حتى الموت لتكن مشيئتك يا رب . ليكن
اسمك مباركا الى النهاية »

وسكنت سلمي وظلت ملاحظها لتكلم ثم اخنت رأسها
وارخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد
تركتها فبان لناظري كغصن قصفته العاصفة والقتة الى
الحضيض ليحف ويندثر تحت اقدام الدهر . فأخذت يدها
المثلجة بيدي الملتهبة وقبلت اصابعها باجفاني وشفتي ولما
حاولت تعزيزيتها بالكلام وجدتي احرى منها بالتعزية
والشفقة فبقيت صامتة حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق
بعواطف مصغياً لآنة قلبي في داخلي خائفاً من نفسي على نفسي

ولم ينبس احدنا ببنت شفة في ما بقي من تلك الليلة
لان اللوعة اذا عظمت تصير خرساء فبقينا ساكتين جامدين
كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد احدنا
يريد ان يسمع الآخر متكلماً لان خيوط قلبينا قد وهت
حتى صار التنهد دون الكلام يقطعها

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً
من وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت شاحب غارق
في المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنعشه . وظهر
لبنان كشيخ لوت ظهره الاعوام واناخت هيكله الاحزان
وهجر اجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويتروقب الفجر
مملك مخلوع جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره .
ان الجبال والاشجار والانهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها
بتقلب الحالات والازمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان
بتغيير افكاره وعواطفه . فشجرة الحور التي نتعالى في النهار

كعروس جميلة بلاعب النسيم اثوابها تظهر في المساء كعمود
دخان يتصاعد نحو الاشياء والصخر الكبير الذي يجلس
عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل
كفقير بائس يفترش الثرى و يلتحف الفضاء والساقية التي
نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة
باغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين
اضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى ولبنان الذي
ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر الجلال والرونق عندما كان
القمر بدرًا والنفس راضية قد بان في تلك الليلة كئيباً
منهوكاً مستوحشاً امام قمر ضئيل ناقص هائم في عرض
السماء وقلب خافق معتل في داخل الصدر
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب والياس شبحين
هائلين هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض
باظفره على عنقينا هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً

ولما اخذت يد سلمي ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني
ولثمت مفرق شعري ثم عادت وارتمت على المقعد الخشبي
واطبقت اجفانها وهمست ببطء « اشفق يا رب وشدد
جميع الاجنحة المتكسرة »

انفصلت عن سلمي وخرجت من تلك الحديقة
شاعراً بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر
الضباب وجه البحيرة . وسرت وخيالات الاشجار القائمة على
جانبي الطريق تحترك امامي كأنها اشباح قد انبثقت من
شقوق الارض لتخيفني ، واشعة القمر الضعيفة ترتعش بين
الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها ارواح الجان السابجة في
الفضاء نحو صدري ، والسكينة العميقة تخيم علي كأنها
اكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة على جسدي . كل ما في
الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس قد صار
قبيحاً رهيباً هائلاً ، فالنور المعنوي الذي اراني جمال العالم

وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها وتستر
نفسي بدخانها ، والنغمة التي كانت تضم اليها اصوات
المخلوقات وتجعلها نشيداً علوياً قد استحوالت في تلك الساعة
الى ضجيج اروع من زجرة الأسد واعمق من صراخ الهاوية
بلغتُ غرفتي وارتميت على فراشي كطائر رماه الصياد
فسقط بين السياج والسهم في قلبه ، وظلت عاقلتي تتراوح
بين يقظة مخيفة ونوم مزعج وروحي في داخلي تردد في
الحالتين كلمات سلى « اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة
المتكسرة »



انما الزيجة في ايامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى
امورها الفتيان وآباء الصبايا . الفتيان يربحون في اكثر
المواطن والآباء يخسرون دائماً اما الصبايا المنقلات كالسلع
من منزل الى آخر فتزول بهجتهم ونظير الامتعة العتيقة
يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء
ان المدينة الحاضرة قد امنت مدارك المرأة قليلاً ولكنها
اكثرت اوجاعها بنعميم مطامع الرجل . كانت المرأة بالأمس
خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة . كانت بالأمس عمياء
تسير في نور النهار فاصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل . كانت
جميلة بجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قبيحة بتفننها
سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها ، فهل يجيء يوم

يجمع في المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف
الجسد بقوة النفس؟ انا من القائلين ان الارتقاء الروحي
سنة في البشر والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها
فعالة ، فاذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء
آخر فلا ان العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكان
الصخور وكهوف الذئاب . في هذا الجيل الشبيه بالغيوبة
التي نتقدم اليقظة - في هذا الجيل القابض بكفيه على
تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية - في هذا
الجيل الغريب بامباله وامانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز
بوجودها عن ابنة المسنقبل . وسلي كرامه كانت في بيروت
رمز المرأة الشرقية العتيدة ، ولكنها كالكثيرين الذين
يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ونظير
زهرة اخنطفها تيار النهر قد سارت قهراً في موكب الحياة
نحو الشقاء

وتزوج منصور بك غالب من سلى فسكننا معاً في
منزل نخم قائم على شاطئ البحر في راس بيروت حيث يقطن
وجهاء القوم والاغنياء ، وبقي فارس كرامه وحده في ذلك
البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين اغنامه
ومضت ايام العرس وانقضت ليالي الافراح ومرّ
الشهر الذي يدعوه الناس عسلاً تاركاً وراءه شهو الخلّ
والعلقم مثلما تترك اجماد الحروب جماجم القتلى في
البرية البعيدة . ان بهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس
الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط
بهم هبوط حجر الرحي الى اعماق اليم ، بل هي مثل آثار
الاقدام على رمال الشاطئ لا تلبث ان تمحوها الامواج
وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتى
لسلى ندرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء
الى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم

نحو روح امه الساكنة في الابدية ، فالصباية التي كانت
تمتلك كليتي قد تحولت الى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها .
والولع الذي كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولها
يستقطر الدم من قلبي . وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي
اصبحت صلاة عميقة تقدمها روحي في السكينة امام السماء
مستمدة السعادة لسلي والغبطة لبعلمها والطمانينة لوالدها .
ولكن باطلاً كنت اشفق وابتهل واصلي لان تعاسة سلي
كانت علة في داخل النفس لا يشفيها سوى الموت . اما
بعلمها فكان من اولئك الرجال الذين يحصلون بغير تعب على
كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون بل يطمحون دائماً
الى ما ليس لهم وهكذا يظنون معذبين بمطامعهم الى نهاية
ايامهم . وباطلاً كنت ارجو الطمانينة لفارس كرامه لان
صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على اموالها الطائلة حتى
نسيه وهجره بل صار يطلب حنفة توصلاً الى ما بقي من ثروته

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب
وكانت اخلاقه كاخلاقه ونفسه صورة مصغرة لنفسه ولم
يكن الفرق بينهما الا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان
المطران يبلغ امانيه مستتراً باثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه
مخنياً بالصليب الذهبي المعلق على صدره اما ابن اخيه
فكان يفعل كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب
الى الكنيسة في الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً
الاموال من الارامل واليتامى وبسطاء القلب ، اما منصور
بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته
في تلك الازقة المظلمة حيث يختمر الهواء بانفاس الفساد .
كان المطران يقف يوم الاحد امام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا
يتعظ به ويصرف ايام الاسبوع مشتغلاً بسياسة البلاد .
اما ابن اخيه فكان يصرف جميع ايامه متاجراً بنفوذ عمه
بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً

يسير مختبئاً بستائر الليل اما منصور بك فكان محتملاً
يمشي بشجاعة في نور النهار

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى
القطعان بين انياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا
تستسلم الامم الشرقية الى ذوي النفوس المعوجة والاخلاق
الفاسدة فتراجع الى الوراء ثم تهبط الى الحضيض فيمر
الدهر ويسحقها باقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية
الفخار . . .

وماذا يا ترى يجعلني الان ان اشغل هذه الصفحات
بالكلام عن امم بائسة يائسة وانا قد خصصتها لتدوين
حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلبسه
الحب بافراحه حتى صفعه باحزانه ؟ . . . لماذا تراود الدموع
اجفاني لذكر شعوب خاملة مظلومة وانا قد وقفت دموعي
على ذكرى ايام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احضنها

الموت ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الامة المظلومة؟
أليست المرأة المتوجعة بين اميال نفسها وقيود جسدها هي
كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها؟ أو ليست العواطف
الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي
كالعواصف الشديدة التي تعمّر حياة الشعوب بالتراب؟
ان المرأة من الأمة بمنزلة الشعاع من السراج وهل يكون
شعاع السراج ضئيلاً اذا لم يكن زيتُه شحيحاً؟

•*•*•*•

مضت ايام الخريف وعرّت الرياح الاشجار متلاعبةً
باوراقها الصفراء مثلما تداعب الانواء زبد البحر، وجاء
الشتاء باكياً منتحباً وانا في بيروت ولا رفيق لي سوى احلام
تصاعد بنفسى تارة فتبلغها الكواكب وتخفض بقلمي طوراً
فتلحده بجوف الارض

ان النفس الكئيبة تجد راحةً بالعزلة والانفراد فتهجر

الناس مثلما يتبع الغزال الجريح عن سر به ويتوارى في
كهفه حتى يبرأ او يموت

ففي ذات يوم سمعت باعنلال فارس كرامه تركت
وحدتي وذهبت لعيادته ماشياً على ممرٍ منفرد بين اشجار
الزيتون المتلمعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً
عن الطريق العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينه
الفضاء

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقياً على
فراشه مضى الجسم ، شاحب الوجه ، اصفر اللون ، وقد
غرقت عيناه تحت حاجبيه فباننا كهوتين عميقتين مظلمتين
تجول فيهما اشباح السقم والألم ، فاللامح التي كانت
بالأمس عنوان البشاشة والانسباط قد نقلصت واكفهرت
واصبحت كصحيفة رمادية متجمدة تكتب عليها العلة سطوراً
غريبة ملتبسة . واليدان اللتان كانتا مغلفتين بالالطف

واللدانة قد نحلنا حتى بدت عظام اصابعهما من تحت
الجلد كقضباني عارية ترعش امام العاصفة
ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حوّل وجهه المهزول
نحوي وظهر على شفّيته المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ،
وبصوت ضعيف خافت خلته آتياً من وراء الجدران قال
« اذهب - اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع
سلي وسكن روعها ثم عد بها اليّ لتجلس بجانب فراشي . . »
دخلتُ الغرفة المحاذية فوجدت سلي منطرحة على
مقعد وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمساند
وأمسكت انفاسها كيلا يسمع والدها نجيبها ، فاقتربتُ منها
ببطء ولفظتُ اسمها بصوت اقرب الى التمهيد منه الى الهمس ،
فاحتركت مضطربة كنائم تراوده الاحلام المخيفة ثم استوت
على مقعدها ونظرت اليّ بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى
شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك المكان

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى دموعها باطراف بنانها وقالت متحسرة « أرأيت كيف تبدلت الايام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة الحب وفي هذا المكان يجمعنا الان الشتاء امام عرش الموت ، فما ابهى ذلك النهار وما اشد ظلمة هذا الليل »

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات واخرها ، ثم عادت وسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت ووقفت امامها فلم تشأ ان تراها فوضعت يدي على شعرها قائلاً « تعالي ياسلى — تعالي ننتصب كالابراج امام الزوبعة . هلمي نقف كالجنود امام الاعداء متلقين سفار السيوف بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرنا نموت كالشهداء ، وإن نغلبنا نعيش كالابطال . . ان عذاب النفس بسباتها

امام المصاعب والمتاعب لهو اشرف من نقهقرها الى حيث
الامن والطأئينة . فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج
حتى تحترق هي اسمي من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة
في نفقه المظلم . والنواة التي لا تحمل برد الشتاء وثورات
العناصر لا تقوى على شق الارض ولن تفرح بجمال
نيسان . . . هلي نسير ياسلمى بقدم ثابتة على هذه الطريق
الوعرة رافعين اعيننا نحو الشمس كيلا نرى الجماجم المطروحة
بين الصخور ، والافاعي المنسابة بين الاشواك ، فان اوقفنا
الخوف في منتصف الطريق اسمعتنا اشباح الليل صراخ
الاستهزاء والسخرية وان بلغنا قمة الجبل بشجاعة نترنم معنا
ارواح الفضاء بانشودة النصر والاستظهار . . . خفني عنك
ياسلمى وجفني دموعك واخفي هذه الكآبة الظاهرة على
حملك وقومي نجلس بجانب فراش والدك لان حياته من
حياتك وشفاءه بابتسامك

فنظرت اليّ نظرةً ملؤها الحنان والرأفة والانعطاف
ثم قالت « أطلب مني الصبر والتجلد وفي عينيك معنى
اليأس والقنوط . أيعطي الفقير الجائع خبزه الى الجائع الفقير .
او يصف العليل دواءً لعليل آخر وهو احري بالدواء ؟ »
ثم وقفت وسارت امامي منخنية الرأس الى غرفة والدها
جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمي نتكف
الابتسام وهدوء البال وهو يتكف الراحة والقوة ، وكل
منهما شاعرٌ بلوعة الاخر عالمٌ بضعفه سامعٌ غصات قلبه ،
فكانا مثل قوتين متضارعتين تفنيان بعضهما بعضاً في
السكينة . والدُّ دنفٌ يذوب ضنيّ لتعاسة ابنته وابنة محبة
تذبل متوجعةً بعلة والدها . نفسٌ راحلة ونفسٌ يائسة
تعاذقان امام الحب والموت وانا بينهما اتحمل ما بي وأقاسي
ما بهما . ثلاثة جمعتهم يد القضاء ثم قبضت عليهم بشدة
حتى سحقتهم . شيخٌ يمثّل بيتاً قديماً هدمه الطوفان ، وصبية

تحاكي زنبقةً قطع عنقها حدُّ المنجل ، وفتى يشابه غرسةً
ضعيفةً لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل العوبة بين
اصابع الدهر

وتحرك الشيخ اذ ذاك بين اللحف ومدّ يده النحيلة
نحو سلمى وبصوت اودعه كل ما في قلب الاب من الرقة
والرأفة وكل ما في صدر العليل من السقم والألم قال
« ضعي يدك في يدي ياسلمى »

فمدّت يدها والقتهما بين اصابعه فضمها بلطف ثم زاد
قائلاً « لقد شبت من السنين يا ولدي . قد عشت طويلاً
وتلذذت بكل ما نثره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه
الايام والليالي . قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب
فتى وجمعت المال كهلاً وكنت في جميع هذه الادوار
سعيداً مغبوطاً . فقدت أمك ياسلمى قبل ان تبلغى الثالثة
ولكنها أبقتك لي كنزاً ثميناً فكنت نمين بسرعة نمو الهلال ،

وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس اشعة
النجوم في حوض ماء هاديء ، وتظهر اخلاقها ومزاياها
باعمالك واقوالك ظهور الحلي الذهبية من وراء النقاب
الرقيق ، فتعزيت بك يا ولدي لانك كنت مثلها جميلة
وحكيمة . . . والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ
بين اجنحة الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لانني بقيت لاراك
امرأة كاملة وافرحي لانني سابق بك حياً بعد موتي . ان
ذهابي الآن هو مثل ذهابي غداً او بعده ، لان ايماننا مثل
اوراق الخريف نتساقط وتبدد امام وجه الشمس ، فان
اسرعت بي الساعات الى الابدية فلاّنها علمت بان روحي
قد اشتاقت الى لقاء أمك»

لفظ الكلمات الاخيرة بنعمة مفعمة بجلاوة الحنين
والرجاء ولاحت على وجهه المنقبض اشعة شبيهة بذلك
النور الذي ينبثق من اجفان الاطفال . ثم مدّ يده بين

المساند المحيطة برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة ينطقها
اطار من الذهب قد نعمت حدوده ملاس الايدي ومحت
نقوشه قبل الشفاه ، ثم قال بدون ان يحول عينيه عن
الرسم « اقتربي ياسلى اقتربي مني ياولدي لاريك خيال
أمك . تعالي وانظري ظلها على صفحة من الورق »

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول
بين ناظرها والرسم الضئيل ، وبعد ان احدقت به طويلاً
كأنه مرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قرّبتة من شفتيها
وقبلته بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة « يا أمّاه . يا أمّاه .
يا أمّاه » ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت ووضعت الرسم
على شفتيها المرتعشتين كأنها تريد ان تبث فيه الحياة
بانفاسها الحارّة

ان اعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية هو لفظة (الأم)
واجمل مناداة هي (يا أمي) . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة

بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من
الرقّة والحلاوة والعدوبة . الأم هي كل شيء في هذه
هذه الحياة - هي التعزية في الحزن والرجاء في اليأس والقوة
في الضعف - هي ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ،
فالذي يفقد أمه يفقد صدرًا يسند إليه رأسه ويبدأ تباركه
وعينًا تحرسه . . .

كل شيء في الطبيعة يمرض ويتكلم عن الامومة
فالشمس هي أم هذه الارض ترضعها حرارتها وتحنننها
بنورها ولا تغادرها عند المساء الا بعد ان تنومها على نعمة
امواج البحر وترنيمه العصافير والسواقي ، وهذه الارض هي
أمُّ الاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم نفضمها .
والاشجار والازهار تصير بدورها أمهات حنونات للثمار
الشهية والبزور الحية . وأم كل شيء في الكيان هي الروح
الكلية الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة

وسلى كرامه لم تكن تعرف امها لانها ماتت وهي طفلة
وقد شهقت متأثرةً عندما رأت رسمها ونادتها « يا اماء »
اسر ارادتها لان لفظه الأم تخبيء في قلوبنا مثلما تخبيء
النواة في قلب الارض وتنبثق من بين شفاهنا في ساعات
الحزن والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء
الصافي والممطر

كانت سلى تحديق برسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلزّه الى
صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدةً ومع كل تنهدة تفقد جزءاً
من قواها حتى اذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت
وسقطت بجانب سرير ابياها ، فوضع كتتا يديه على رأسها
قائلاً « قد أريتك يا ولدي شبح امك على صفحة من
الورق فاصغي الي لا سمعك اقوالها »

فرفعت سلى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما
تسمع حفيف اجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه

مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى اعين
محدقة وأذان واعية

فقال والدها « كنت طفلة رضية عندما فقدت
امك والدها الشيخ فخرت لفقده وبكت بكاءً حكيمٍ
متجلدٍ ولكنها لم تعد من جانب قبره حتى جلست بجانبني في
هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت (قدمات والذي
يا فارس وانت باقٍ لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بعواطفه
المتشعبة يماثل الارزة باغصانها المتفرقة فاذا ما فقدت شجرة
الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحوّل قواها
الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملاً بفروعه الغضة
مكان الغصن المقطوع) . هذا ما قالته والدتك يا سلمي
عندما مات ابوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليه عندما
يأخذ الموت جسدي الى راحة القبر وروحي الى ظل الله »
فاجابت سلمي متفجعةً « فقدت امي والدها فبقيت

انت لها من بقي لي اذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل امين - مات والدها فبقي لها طفلة تنمر رأسها الصغير بشديها وتطوق عنقها بذراعيها فمن بقي لي اذا فقدتك يا والدي ؟ انت أبي وأمي ورفيق حدائتي ومهذب شبييتي فبمن استعيض اذا ما ذهبت عني؟» قالت هذا وحوّلت عينيها الدامعتين نحوي وامسكت بيمنها طرف ثوبي ثم قالت « ليس لي غير هذا الصديق يا والدي ولن بقي لي سواه اذا ما تركتني ، فهل اتعزى به وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟ ان الحزينة لا نتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير باجنحة مكسورة . . . هو رفيق انفسي ولكنني قد اثقلت عائقه باشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى غير الظلمة . هو اخ احبه ويجبني ولكنه مثل جميع الاخوة يشترك بالمصيبة ولا يخففها ويساعد بالبكاء فيزيد

الدمع مرارة والقلب احتراقاً»

كنتُ اسمع سلى منكلمةً وعواطفي نثمو وصدري يضيق
حتى شعرت بان اضلعي تكاد تفتجر حناجر وفوهات .
اما الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط يهبط بين
الوسائد والمساند ونفسه المتعبة ترتجف كشمعة السراج امام
الريح . ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء « دعيني اذهب بسلام
ياولدي . لقد لمحت عيناى ما وراء الغيوم فلن احولها نحو
هذه الكهوف . . . دعيني اُطير فقد كسرتُ باجنحتي قضبان
هذا القفص . قد ناديتي اُمكِ ياسلى فلا توقفيني . . . ها قد
طاب الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة
شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفيها ولا تنزعي دفتها . . . دعي
جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعي روحي تستيقظ لان
الفجر قد لاح والحلم قد انتهى . . . قبلي روحي بروحك . . .
قبليني قبلة رجاءٍ وأمل . . . ولا تسكبي قطرة من مرارة

الحزن على جسدي لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن
امتصاص عناصره . . . ولا تذرفي دموع اليأس على يدي
لأنها تنبت شوكة على قبري . . . ولا ترسمي بزفرات الاسي
سطراً على جبتي لان نسيم السحر يمر ويقراه فلا يحمل
غبار عظامي الى المروج الخضراء . . . قد احببتك بالحياة
يا ولدي وسوف احبك بالموت فتظل روحي قريبة منك
لتحميك وترعاك «

والتفت الشيخ اليّ وقد انطبقت اجفانه قليلاً فلم اعد
ارى سوى خطين رماديين مكان عينيه ثم قال وسكينة
الفناء تسترق الفاظه « اما انت يا ابني فكن اخاً لسلي مثلما
كان والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة وكن
صديقاً لها حتى النهاية : ولا تدعها تحزن لان الحزن على
الاموات غلطة من اغلاط الاجيال الغابرة . بل اتل على
مسمعيها احاديث الفرح وانشدها اغاني الحياة فتسلو

وتتناسى . . . قل لا ليك ان يذكرني . . . سله فيخبرك عن ماتي
ايامي عندما كان الشباب يخلق بنا الغيوم . . . قل له انني
احببته بشخص ابنه في آخر ساعة من حياتي . . . »

وسكت دقيقةً وظلت اشباح الفاظه تدبّ عليّ جدران
الغرفة ثم عاد فنظر اليّ والى سلمى بوقت واحد وقال همساً
« لا تدعوا طبيباً ليظيل بمساحيقه ساعات سجنني لان ايام
العبودية قد مضت فطلبت روجي حرّية الفضاء . . . ولا
تدعوا كاهناً الى جانب فراشي لان « تعازيمه » لا تكفر عن
ذنوبي ان كنت خاطئاً ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت
باراً . . . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان المنجمين لا
يحولون مسير النجوم . . . اما بعد موتي فليفعل الاطباء
والكهان ما شاءوا فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة
حتى تبلغ الساحل . . . »

.

عندما انتصف ذلك الليل المخيف فتح فارس كرامه
عينيه الغارقتين في ظلمة النزاع - فتحها لآخر مرة -
وحولها نحو ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام
فلم يستطع لان الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه
الانفاظ لهاثاً عميقاً من بين شفثيه « ها قد ذهب الليل ..
وجاء الصباح .. يا سلمى .. يا سلمى .. يا سلمى .. »

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفثاه واسلم

الروح .

ومدّت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة
كالثلج فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقعاً
بنقاب الموت فجمدت الحياة في جسدها وجفت الدموع
في محاجرها ، فلم تحترك ولم تصرخ ولم تتأوه بل بقيت محدقة
به بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت اعضاؤها
مثلاً تتراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست

جبهتها الارض ثم قالت بهدوء « اشفق يا رب وشدد جميع
الاجنحة المكسورة »

.

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع
التراب جسده واستولى منصور بك على امواله وظلت ابنته
اسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها المخاوف امام
عينها .

اما انا فكنت ضائعاً بين احلامي وهو اجسي تتناوبني
الايام والليالي مثلما تنتاب النسور والعقبان لجان الفريسة .
فكم حاولت ان افقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلمي
استانسُ بخيالات الذين طواهم الدهر ، وكم جرّبت ان
انسى حاضري لاعود بقراءة الاسفار الى مسارح الاجيال
الغابرة فلم يجديني كل ذلك . نفعاً بل كنتُ كمن يحاول
اخمد النار بالزيت ، لانني لم اكن ارى من مواكب الاجيال

سوى اشباحها السوداء ولا اسمع من انغام الامم غير الندب
والنواح ، فسفر ايوب كان عندي اجمل من مزامير داود
ومراثي ارميا كانت احب لدي من نشيد سليمان ونكبة
البرامكة اشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين وقصيدة
ابن زريق اكثر تأثيراً من رباعيات الخيامي ورواية هممت
اقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير اشباحنا
الرهيبة وهكذا يصمُّ اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات
قلوبنا المضطربة . . .



Belween Ash Tarat
المسح

- 107 -

9

بين عششروت والمسح



بين تلك البساتين والتلول التي تصل اطراف بيروت
باذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب
صخرة بيضاء قائمة بين اشجار الزيتون واللوز والصفصاف ،
ومع ان هذا المعبد لا يبعد اكثر من نصف ميل عن طريق
المركبات فقد قلَّ من عرفه من محبي الآثار والخرائب
القديمة ، فهو مثل اشياء كثيرة خطيرة في سوريا مخنبي
وراء ستائر الاهمال ، فكأن الاهمال قد ابقاه محبوباً عن
عيون الأثرين ليحمله خلوةً لنفوس المتعبين ومزاراً للمحبين
المستوحشين .

والداخل الى هذا المعبد العجيب يرى على الجدار الشرقي منه صورةً فينيقية الشواهد والبيئات محفورة في الصخر قد سمت اصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها . وهي تمثل عشروت ربّة الحب والجمال جالسة على عرش نخم ومن حولها سبع عذارى عاريات واقفات بهيئات مختلفة ، فالواحدة منهنّ تحمل مشعلاً والثانية قيثارةً والثالثة مبخرةً والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد والسادسة اكليلاً من الغار والسابعة قوساً وسهاماً وجميعهنّ ناظرات الى عشروت وعلى وجوههنّ سماء الخضوع والامتثال .

وعلى الجدار الثاني صورة اخرى احدث عهداً واكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه امه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان ننتخبان . وهذه الصورة البيزنطية الاسلوب والقرائن تدل على كونها حُفرت في

القرن الخامس او السادس للمسيح (١)
وفي الجدار الغربي كوٲتان مستديرتان يدخل منهما
شعاع الشمس عند اصيل النهار وينسكب على الصورتين
فتظهران كأنهما قد طليتا بماء الذهب .
وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على
جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد انجبت بعضها
تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على ان الاقدمين
كانوا ينحرون ذبايحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين
الخمر والعطر والزيت .

(١) من المعلوم عند الاثريين ان اكثر الكنائس المسيحية في
الشرق كانت هياكل ومعابد لآلهة الفينيقيين واليونان الاقدمين .
ومما يستدعي التأمل وبنبه الخيال انقلاب الهيكل كنيسة ثم
صيرورته جامعاً . ففي دمشق وانطاكية والاستانة ابنية عديدة
رددت زواياها ترانيم الوثنيين ثم طليت سقوفها ببخور المسيحيين
ثم تبطنت جدرانها بصلوات المسلمين .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينته
عميقة تعانق النفس وهيبة سحرية تبيح بتموجاتها اسرار
الالهة وتكلم بلا نطقٍ عن مآتي الاجيال الغابرة ومسير
الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين . وتستميل
الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم وتقع الفيلسوف بان
الانسان مخلوق دينٌ يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع
عليه حواسه فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا
نفسه ويحسم خياله بالكلام والانعام والصور والتماثيل التي
تظهر باشكالها اقدس امياله في الحياة واجمل مشتبهاته
بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت النقي بسلي كرامه مرة
في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين الى الصورتين
الغريبتين مفكرين بفتى الاجيال المصلوب فوق الجلجلة
مستحضرين الى مخيلتنا اشباح الفتيان والصبايا الفينيقين

الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشروت
فخرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم
طوتهم الارض فلم يبقَ منهم سوى اسم تردده الايام امام
وجه الابدية .

كم يصعب عليّ الان ان ادوّن بالكلام ذكرى تلك
الساعات التي كانت تجمعني بسلى - تلك الساعات العلوية
المكتنفة باللذة والألم والفرح والحزن والأمل واليأس
وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم
يصعب عليّ ان اذكرها ولا ارسم بالكلام الضئيل خيالاً
من خيالاتها ليبقى مثلاً لابناء الحب والكآبة

كنا نخلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه
ساندين ظهرينا الى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين
ماّتي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نتدرج الى اظهار ما في
اعماق نفسينا فيشكو كلُّ منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه

من الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحدا الاخر باسطاً امامه
كل ما جيوب الأمل من الاوهام المفرحة والاحلام
العذبة ، فيهدأ روعنا وتجف دموعنا وتنفرج ملامحنا ثم
نبسم متناسين كل شيء سوى الحب وافراحه منصرفين
عن كل امرٍ الا النفس واميالها . ثم تتعاقق فنذوب شغفاً
وهياماً . ثم نقبل سلى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملاً
قلبي شعاعاً واقبل اطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينها
وتلوي عنقها العاجي وتورد وجنتها باحمرار لطيف يشابه
الاشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت
وننظر طويلاً نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بانوار
المغرب البرنقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث
الشكوى بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات
فنتبادل الاراء والافكار في شؤون هذا العالم الغريب

وتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين
حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية
والمبادئ الاجتماعية ، ففتكلم سلى عن منزلة المرأة في
الجامعة البشرية وعن تأثير الاجيال الغابرة على اخلاقها
واميالها وعن العلاقة الزوجية في ايامنا هذه وما يحيط بها
من الامراض والمفاسد . واني اذكر قولها مرة « ان الكتاب
والشعراء يحاولون ادراك حقيقة المرأة ولكنهم لان لم
يفهموا اسرار قلبها ومخبات صدرها لانهم ينظرون اليها من
وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او
يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف
والاستسلام »

وقولها لي مرة اخرى وقد اشارت بيدها الى الرسمين
المحفورين على جدران الهيكل « في قلب هذه الصخرة قد
نقشت الاجيال رمزين يظهران خلاصة اميال المرأة

ويستجلبان غوامض نفسها المتراوحة بين الحب والحزن
 - بين الانعطاف والتضحية - بين عشثوت الجالسة
 على العرش ومريم الواقعة امام الصليب . . . ان الرجل
 يشتري المجد والعظمة والشهرة ولكن هي المرأة التي تدفع
 الثمن «

ولم يدري باجتماعاتنا السرية احد سوى الله واسراب
 العصفير المتطيرة بين تلك البساتين ، فسلى كانت تجيء
 بمركبها الى المكان المدعو بجديقة الباشا ثم تسير الهوينا
 على الممرات المنفردة حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله
 مستندة على مظلتها وعلى وجهها لوائح الأمن والطمانينة
 فتجدني منتظراً مترقباً مشتاقاً بكل ما في الشوق من الجوع
 والعطش .

ولم نخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير لان
 النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع نترفع عما

يدعوه الناس عيباً وعاراً وتحرر من عبودية الشرائع
والنواميس التي سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري
وثقف برأس مرفوع امام عروش الالهة

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى
الشرائع الفاسدة فلم تعد قادرة على ادراك معاني النواميس
العلوية الأولية الخالدة . قد تعدت بصيرة الانسان النظر
الى ضوء الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحدد بنور
الشمس . لقد توارث الاجيال الامراض والعايات النفسية
بعضها عن بعض حتى اصبحت عمومية بل صارت من
الصفات الملازمة للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها
كعايات وامراض بل يعتبرونها كحلال طبيعية نبيلة انزلها
الله على آدم فاذا ما ظهر بينهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً
محروماً من الكمالات الروحية .

اما الذين سيعيبون سلى كرامه محاولين تلويث اسمها

لانها كانت نترك منزل زوجها الشرعي لتخلي برجل آخر
فهم من السقماء الضعفاء الذين يحسبون الاصحاء مجرمين
وكبار النفوس متمردين . بل هم كالحشرات التي تدب في
الظلمة وتخشى الخروج الى نور النهار كيلا تدوسها اقدام
العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران
سجنه ولا يفعل يكون جباناً . وسلي كرامه كانت سجيته
مظلومة ولم تستطع الانعتاق فهل تلام لانها كانت تنظر
من وراء نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟
هل يحسبها الناس خائفة لانها كانت تجيء من منزل
منصور بك غالب لتجلس بجانب بين عشروت المقدسة
والجبار المصلوب ؟ ليقل الناس ما شاءوا فسلي قد اجتازت
المستنقعات التي تعمر ارواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا
يلغغه عوي الذئاب وفحيح الافاعي . وليقل الناس ما ارادوا

عني فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تذعرها وجوه
الصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكةً فوق
رأسه وسواقى الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة
التي يرشقه بها صبيان الازقة .



The Sacrifice

١٠

التضحية



ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحرّ في
السواحل وطلب الناس اعالي الجبال سرت كعادتي نحو
ذلك المعبد واعدت نفسي بلقاء سلى حاملاً بيدي كتاباً
صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد
ولم تنزل الى الان تستميل روعي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق
المناسبة بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت
الى آخر الى وجه كتابي هامساً في مسامع الأثير ابيات
تلك الموشحات التي تستهوي القلب برشاقة تراكيها ورنه

اوزانها وتعيد الى النفس ذكرى اجماد الملوك والشعراء
والفرسان الذين ودعوا غرناطة وقرطبة واشبيلة تاركين في
قصورها ومعاهدها وحدثتها كل ما في ارواحهم من
الآمال والاميال ثم تواروا وراء حجب الدهور والدمع في
اجفانهم والحسرة في اكبادهم .

وبعد ساعة التفت فاذا بسلي تيمس بقدها النخيل بين
الاشجار المنبكة وثقرب نحوي مستندة على مظلتها كأنها
تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب
الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت
فيهما معاني واسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه
وثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يجول في خاطري فلم تشأ ان
يطول الصراع بين ظنوني وهو اجسي فوضعت يدها على
شعري وقالت « اقترب مني ، اقترب مني يا حبيبي ، اقترب

ودعني ازود نفسي منك فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى
الأبد»

فصرختُ قائلاً « ماذا تعنين يا سلى وأية قوة
تستطيع ان تفرقنا الى الأبد ؟ »

فاجابت ان القوة العمياء التي فرقتنا بالامس ستفرقنا
اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائع البشرية ترجماناً عنها
قد بنت بايدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك .
القوة التي اوجدت الشياطين واقامتهم اولياء على ارواح
الناس قد حتمت عليّ ان لا اخرج من ذلك المنزل المبني من
العظام والجماجم»

فسألتها قائلاً « هل علم زوجك باجتماعاتنا فصرت
تخشين غضبه وانتقامه ؟ »

فاجابت « ان زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف
اصرف ايامي فهو مشغول غني باولئك الصبايا المسكينات

المواتي نقودهن الفاقة الى اسواق النخاسين فيتعطرن
ويتكحلن ليبعن اجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع «
فقلتُ « اذاً ماذا يصدك عن الهجاء الى هذا المعبد
والجلوس بجانب امام هيبة الله واشباح الاجيال ؟ هل ملتِ
النظر الى خفايا نفسي فطلبتِ روحكِ الوداع والتفريق ؟ »
فاجبت والدمع يراود اجفانها « لا يا حبيبي . ان
روحي لم تطلب فراقك لانك شطرها ولا ملتِ عيني
النظر اليك لانك نورهما . ولكن اذا كان القضاء قد حكم
علي ان اسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود والسلاسل
فهل ارضى بان يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟ »
فقلتُ « تكلمي يا سلمي واخبريني عن كل شيء ولا
تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات »
فاجبت « لا اقدر ان اقول كل شيء لان اللسان
الذي اخرسته الاوجاع لا يتكلم والشفاه التي ختم عليها

اليأسُ لا تحترك وكل ما اقدر ان ا قوله لك هو اني اخاف
عليك من الوقوع في شرك الذين نصبوا لي الحبائل
واصطادوني»

فقلت « ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين عليّ
منهم ؟ »

فسترت وجهها بيديها وتأوهت ملتاعةً ثم قالت
مترددةً « ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بانني اخرج
مرّةً في الشهر من القبر الذي وضعني فيه »

فقلتُ « وهل علم المطران بانك تلتقين بي في هذا
المكان ؟ »

فاجابت « لو علم بذلك لما رأيتني الان جالسةً بقربك ،
ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بافكاره وقد
بثّ عليّ العيون لترقبني واوعز الى خدمه لي تجسسوا
حركاتي حتى صرت اشعر بان للمنزل الذي اسكنه

والطرق التي اسير عليها نواظرٌ تحديق بي واصابعٌ تشير
اليّ وآذان تسمع همس افكاري »

واطرقت هنيهةً ثم زادت والدمع ينسكب عليّ وجنتيها
« انا لا اخاف عليّ نفسي من المطران لان الغريق لا يخشى
البلبل ، ولكنني اخاف عليك وانت حرٌّ كنور الشمس
ان تقع مثلي في اشراكه فيقبض عليك باظافره وينهشك
بانيابه . . انا لا اخاف من الدهر لانه افرغ جميع سهامه في
صدري ولكنني اخاف عليك وانت في ربيع العمر ان
تلسع الافعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل
حيث ينتظرُك المستقبل بافراحه وامجاده »

فقلتُ « ان من لا تلسعه افاعي الايام وتنهشه ذئاب
الليالي يظل مغروراً بالايام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمي ،
اسمعي جيداً ، أليس امامنا غير الفراق لتتقي صغارة الناس
وشرورهم ؟ هل سدّت امامنا سبل الحب والحياة والحرية

فلم يبقَ غير الاستسلام الى مشيئة عبيد الموت ؟
فاجابتُ بلهجة يساورها القنوط والحسرة « لم يبق
امامنا غير الوداع والتفرق »

فاخذتُ يدها وقد تمردت روعي في داخلي وتبدد
الدخان عن شعلة فتوتي فقلتُ متهيجاً « قد استسلمنا
طويلاً الى اهواء الناس يا سلمى . . منذ تلك الساعة التي
جمعتنا حتى الان ونحن ننقاد الى العميان ونركع امام
اصنامهم . مذ عرفتكِ ونحن في يد المطران بولس غالب
مثل كرتين يلعب بنا كيفما اراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل
نبقى خاضعين لديه محققين بظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر
وتبتلعنا الارض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت
اقدام الموت ، واعطانا الحرّية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان
من يخذ نار نفسه بيده يكون كافراً بالسماء التي اوقدتها .
ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف

البطل عَلَى الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد
احببتك يا سلمى واحببتني والحب كنز ثمين يودعه الله
النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر
الخنازير لتبعثره بانوفها وتذريه بارجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً
وسيعاً مملوءاً بالمحاسن والغرائب فلماذا نسكن في هذا النفق
الضيق الذي حفره المطران واعوانه ؟ امامنا الحياة وما في
الحياة من الحرّية وما في الحرّية من الغبطة والسعادة فلماذا
لا نخلع النير الثقيل عن عائقنا ونكسر القيود الموثوقة
بارجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمأنينة ؟ قومي يا سلمى
نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي
نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى
بلاد بعيدة لا تطالها ايدي الصوص ولا تبلغها لهات
الابالسة . تعالي نسرع الى الشاطئ مستترين بوشاح الليل
فنعتلي سفينة نقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحي حياة

جديدة مكتنفة بالطهر والتفاهم ، فلا تلوثنا الثعابين بانفاسها
ولا تدوسنا الضواري باقدامها . لا نترددي يا سلمى فهذه
الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمي من سرائر الملائكة .
قومي نتبع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى
حقول تنبت الازاهر والرياحين «

فهزّت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور
في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت عليّ شفقتها ابتسامة محزنة
تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء
« لا لا يا حبيبي ، ان السماء قد وضعت في يدي كأساً
مفعمةً بالخلّ والعلم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبقَ فيها غير
قطرات قليلة سوف اشربها متجلدةً لأرى ما في قعر
الكأس من الاسرار والحفايا . اما تلك الحياة الجديدة
العلوية المكتنفة بالهبة والراحة والطمانينة فاننا لا نستحقها ولا
اقوى عليّ احتمال افراحها وملذاتها ، لان الطائر المكسور

الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء ، والعيون الرمضاء تحرق بالاشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر الى الانوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لان ظله يخيفني كالشقاء . . . ولكن انظر الى الأريك الشعلة المقدسة التي اوقدها السماء بين رماد صدري . . . انت تعلم بانني احبك محبة الأم وحيدها وهي المحبة التي علمتني ان احملك حتى ومن نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفتني الان عن اتباعك الى اقاصي الارض وتجعلني ان اميت عواظني وامبالي لكي تجي انت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس ونقولاتهم الفاسدة . ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب اما المحبة الغير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين يقظة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وثقن بالوصل

وتنمو بالقبل والعناق ، اما المحبة التي تولد في احضان
اللانهاية وتهبط مع اسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا
تستكفي بغير الخلود ولا تقف متهبية امام شيء سوى
الالوهية عندما عرفت بالامس بان المطران بولس
غالب يريد ان يمنعني عن الخروج من منزل ابن اخيه
ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها منذ تزوجت ، وقفت
امام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر مفكرة بما وراءه من
البلاد الوسيعة والحرية المعنوية والاستقلال الشخصي ،
وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطةً بخيالات روحك ،
مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير صدور
النساء المظلومات وتجعلن ان يتمردن على التقاليد الباطلة
ليعشن في ظل الحق والحرية لم تمر في خاطري حتى جعلتني
ان استصغر نفسي واستضعفها وان أرى محبتنا واهية
محدودة لا تستطيع الوقوف امام وجه الشمس ، فبكيت

بكاء ملك اضاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما
لبثت ان رأيت وجهك من خلال دموعي وابصرت
عينيك محذقتين بي فتذكرت ما قتلته لي مرة وهو (هلمي
يا سلمى نقف امام الاعداء متلقين سفار السيوف بصدورنا
بظهورنا فان صرعنا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالأبطال ،
لان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب والمتاعب
هو اشرف من نقهرها الى حيث الأمان والطمأنينة) . .
هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت اجنحة الموت
ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها بالامس وقد كانت
اجنحة اليأس تصفق حول وأسي : فنقويتُ وتشجعتُ
وشعرتُ وانا في ظامة السجن بنوع من الحرية النفيسة
التي تستهون الشدائد وتستصغر الاحزان ، ورأيتُ حيننا
عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء ، وقد جئت
اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكة قوة جديدة وهي

المقدرة عَلَى تضحية الأمر العظيم للحصول عَلَى امر اعظم
- تضحية سعادتي بقربك لكي تبقى انت شريفاً بعرف
الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم . . . كنت اجيء
بالامس الى هذا المكان والقيود الثقيلة تغل قديمي
الضعيفتين اما اليوم فقد جئتُ شاعرة بعزم يهزأ بثقل
القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء مثل طيف طارق
خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجود
التضحية وتعرف قيمة الالوجاع وتريد ان تحمي من تجبه
من الناس الاغبياء ومن نفسها الجائعة . كنت اجلس
حذاءك مثل ظل مرتجف وقد آتيت اليوم لأريك حقيقتي
امام عشروت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة نابتة في
الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترتعش ساعة في نور
النهار . . . قد جئت لادعك يا حيبي فليكن وداعنا عظيماً
وهائلاً مثل حبنا - ليكن وداعنا كالنار التي تهصر الذهب

لتجعله اشد لمعاناً»

ولم تترك لي سلى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت
اليّ وقد ابرقت عيناها فاحاطت اشعتها بوجداني واتسحت
ملامح وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانَت كملِيكة
توحي الصمت والتخشع، ثم ارتمت عليّ صدري بانعطاف
كليّ ما عهدته فيها قبل تلك الساعة وطوّقت عنقي بزندها
الاملس وقبلت شفنيّ قبلة طويلة عميقة محرقة ايقظت
الحياة في جسدي واثارت الاسرار الخفية في نفسي وجعلت
الذات الوضعية التي ادعوها (انا) ان تُتمرد عليّ العالم بأسره
لتخضع صامتةً امام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلى
هيكلًا ونفسها مذبحاً.

.....

ولما غربت الشمس وامحت اشعتها الاخيرة عن تلك
الحدائق والبساتين انتفضت سلى ووقفت في وسط الهيكل

ونظرت طويلاً الى جدرانها وزواياها كأنها تريد ان
تسكب نور عينيها على رسومه ورموزه ثم تقدمت قليلاً
وجثت خاشعاً امام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه
المكلومتين مرات متوالية ثم همست قائلة « ها قد اخترت
صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات عشروت
وافراحها ، قد كللت رأسي بالاشواك بدلاً من الغار ،
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب ،
وتجرعت الخل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر
والكوثر ، فاقبلني بين تابعيك الاقوياء بضعفهم وسيرني نحو
الجلجلة برفقة مخاريك المستكفين باوجاعهم المغبوطين
على كآبة قلوبهم »

ثم انتصبت والتفت نحوي قائلة « سأعود الان
فرحة الى الكهف المظلم حيث تراكض الاشباح المخيفة
فلا تشفق علي يا حبيبي ولا تحزن من اجلي لان النفس التي

ترى ظل الله مرّةً لا تخشى بعد ذلك اشباح الالبسة ،
والعين التي تكتحل بلحّة واحدة من الملاء الاعلى لا تغمضها
اوجاع هذا العالم »

وخرجت سلى من ذلك المعبد ملتفةً بملابسها الحريرية
وتركتني حائرّاً ضائعاً مفكراً مجذوباً الى مسارح الرؤيا
حيث تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة اعمال
البشر وتتلو الارواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال
بأناشيد الحب والحزن والخلود .

ولما صحوتُ من هذه السكرّة وكان الليل قد غمر
الوجود بامواجه القائمة ، وجدتني هائمّاً بين تلك البساتين
مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلى معيداً
الى نفسي حرّكاتهما وسكناتها وملامح وجهها وملامس
يديها ، حتى اذا ما اتضح لي حقيقة الوداع وما سيجيء
بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكري وتراخت

خيوط قلبي وعلمت للمرة الاولى بان الانسان وإن وُلد حرّاً
يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤُهُ واجدادُهُ ، وان
القضاء الذي نتوهمه سرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى ما تي
الامس ، وخضوع الغد الى اميال اليوم . . . وكم مرّة ففكرتُ
منذ تلك الليلة الى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي
جعلت سلمي ان تخنار الموت بدلاً من الحياة . . . وكم مرّة
وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لارى ايهما
اجلّ واجملّ ، ولكنني للان لم افهم سوى حقيقة واحدة
وهي ان الاخلاص يجعل جميع الاعمال حسنة وشريفة ،
وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد
متجسدة .

ومرّت خمسة اعوام علىّ زواج سلمي ولم ترزق ولداً
ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلمها ويقرب
بابتساماته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر بين اوامر
الليل واوائل النهار.

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لان الانانية تصور
لاكثر الرجال دوام الحياة في اجساد الابناء فيطلبون
النسل ليظلوا خالدين على الارض

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي
يرى بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حنفها
كانها عدو غدار يريد الفتك به. ومنصور بك غالب كان
مادياً كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالمقبرة وكانت

رغبته بأبن يريث اسمه وسوؤدده تكررّه بسلى المسكينة
وتحول محاسنها في عينيه الى عيوب جهنمية . .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمرأ ،
وسلى كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان
البلبل لا يحوك عشأ في القفص كيلا يورث العبودية
نفاخه ، وسلى كرامه كانت سجينه الشقاء فلم تقسم السماء
حياتها الى أسيرين . ان ازاهر الاودية هي اطفال يلدها
انعطاف الشمس وشغف الطبيعة ، واطفال البشر ازاهر
يلدها الحب والحنو ، فسلى كرامه لم تشعر قط بانفاس
الحنو وملامس الانعطاف في ذلك المنزل الفخم القائم على
شاطئ البحر في رأس بيروت ، ولكنها كانت تصلي في
سكينة الليالي ضارعة امام السماء لتبعث اليها بطفل يجفف
باصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور عينيه خيال الموت
عن قلبها .

وقد صلت سلى متوجعةً حتى ملأت الفضاء صلاةً
وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثةً حتى بدد صراخها الغيوم ،
فسمعت السماء نداءها وبثت في احشائها نعمةً مخنمةً
بالحلاوة والعدوبة واعدتها بعد خمسة اعوام من زواجها
لتصيرها امًا وتحولها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد ازهرت للثمر .
البلبل المسجون في القفص قد همَّ ليحوك عشًا من
ريش جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وُضعت في مهب
نسيم المشرق ليحرك بامواجه ما بقي من اوتارها .
سلى كرامه المسكينة قد مدَّت ذراعها المكبلتين
بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .

وليس بين افراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر
عندما تهيئها النواميس الازلية لتصيرها امًا . كل ما في بقظة

الربيع من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة يجتمع
بين اضلع المرأة التي احرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور اشد سطوعاً واكثر لمعاناً من الاشعة التي
يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات
عند ما تمت ايام سلى لتلد بكرها ، وكان الطبيعة قد وافقتها
وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاورها وتلف باقطة الحرارة
اطفال الاعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلى تترقب الخلاص مثلما
يترقب المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل
من وراء دموعها فتراه مشعشعاً وقد طالما ظهرت الاشياء
القائمة متلمعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت اشباح الظلام بين تلك المنازل
في رأس بيروت ، انطرحت سلى على مضجع المخاض

والاوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب
فراشها ، ووقف الطيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضعيفاً
جديداً ، وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة
امواج البحر ولم يعد يُسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل
يتصاعد من نوافذ منزل منصور بك غالب . . صراخ
انفصال الحياة عن الحياة . . صراخ محبة البقاء في فضاء
اللاشيء والعدم . . صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينه
القوى الغير المتناهية . . صراخ سلى الضعيفة المنطرحه
تحت اقدام جبارين الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلى ابناً ، ولما سمعت اهلاله
فتحت عينها المغلفتين بالألم ونظرت حولها فرأت الواجه
متهللة في جوانب تلك الغرفة ، . . ولما نظرت ثانية رأت
الحياة والموت مازالا يتصارعان بقرب مضجعهما فعادت
وانغمضت عينها وصرخت لأول مرة « يا ولدي » .

ولفت القابلة الطفل بالاقطة الحريرية ووضعت
حذاء امه ، اما الطيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو
سلى ويهز رأسه صامتاً بين الديقة والاخرى .

وايقظت نعمة الفرح بعض الجيران فحاءوا بملابس
النوم ليهنئوا الوالد بولده ، اما الطيب فبقي ينظر بعينين
كئيبتين نحو الوالدة وطفلها .

واسرع الخدم نحو منصور بك ليشروه بقدم وريثه
ويملاً وا ايديهم من عطاياه ، اما الطيب فلبث واقفاً ينظر
بعينين يأسيتين الى سلى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلى ولدها من ثديها
ففتح عينيه لأول مرة ونظر في عينها ثم اختلج وانغمضها
لآخر مرة . فدنا الطيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت
على وجنتيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سرّه قائلاً « هو
زائر راحل ا »

مات الطفلُ وسكان الحيِّ يفرحون مع الوالد في
القاعة الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى
المسكينة تحدق بالطيب وتصرخ قائلة « اعطني ولدي
لاضمه » ثم تحدق ثانيةً فترى الموت والحياة يتصارعان
بجانب سريرها .

مات الطفل ورنه الكؤوس تنمو وتكاثر بين ايدي
الفرحين بمجيئه .

وُلد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس . .
وُلد مع الفجر ومات عند طلوع الشمس فأَيُّ بشريِّ
يستطيع ان يقيس الزمن ليخبرنا ما اذا كانت الساعة التي
تمرّ بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي اقصر من الدهر
الذي يمرّ بين ظهور الامم وتواريتها .

وُلد كالفكر ومات كالتهنّدة واخفى كالظلم فاذا
سلمى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعدها ويزيل

بد الموت عن قلبها . .

حياةٌ قصيرةٌ ابتدأتُ بنهاية الليل وانقضت بابتداء
النهار فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها اجفان الظلام
ثم تجففها ملامس النور . .

كلمة لفظتها النواميس الازلية ثم ندمت عليها واعادتها
الى سكينه الابدية . .

لؤلؤة قذفها المدُّ الى الشاطئ ثم جرفها الجزر الى
الاعماق . .

زنبقة ما انبثقت من كمام الحياة حتى انسحقت تحت
اقدام الموت . .

ضيفٌ عزيزٌ ترقيبت سلمى قدومه ولكنه ما حلَّ
حتى ارتحل وما فتح مصرعي الباب حتى اخنفي . .

جنينٌ ما صار طفلاً حتى صار تراباً - وهذه حياة
الانسان . بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والاقمار

والكواكب ..

وحولت سلمى عينيها نحو الطيب وتهدت بشوق
جارح ثم صرخت قائلةً « اعطني ابني لاضمه بذراعي .. »
اعطني ولدي لارضعه .. »

فكس الطيب رأسه وقال والغصات تخرسه « قد
مات طفلك ياسيدي فتجلدي وتصبري لكي تعيشي بعده »
فصرخت سلمى بصوت هائل ثم سكنت هنيهة ، ثم
ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت
شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوءٍ « اعطني جثة ولدي . قرّبه
مني ميتاً »

فحمل الطيبُ الطفلَ الميتَ ووضعهُ بين ذراعيها
فضمته الى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه
« قد جئت لتأخذني يا ولدي . قد جئت لتدلني على الطريق
المؤدية الى الساحل . هاءنذا يا ولدي فسر امامي لنذهب من

هذا الكهف المظلم

وبعد دقيقة دخلت اشعة الشمس من بين ستائر النافذة
وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع
تخفره هيبة الامومة وتظله اجنحة الموت

فخرج الطبيب باكيًا من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة
الكبرى تبدلت تهاليل المهنيين بالصراخ والعيويل ، اما منصور
بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه بكلمة
بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس الشراب

.

وفي اليوم التالي كفت سلمى باثواب عرسها البيضاء
ووضعت في تابوت موسى بالمخمل الناصع ، اما طفلها فكانت
اقطته اكفانه وتابوته ذراعي أمه وقبره صدرها الهادي .

حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه
طرقات القلوب في صدور المنازعين فسار المشيعون وسرت

بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي
بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرتل ويعزم
ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم
الكالحة نقاب من الخلو والغفول

ولما انزلوا التابوت الى اعماق الحفرة همس احد الواقفين
قائلاً « هذه اول مرة رأيت جسدين يضمهما تابوت واحد »
وقال آخر « كأن طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من
مظالم زوجها وقساوته »

وقال آخر « تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى
الفضاء بعينين زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في
يوم واحد »

وقال اخر « غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة
اخرى اوفر ثروة واقوى جسماً »
وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور

من ردم الحفرة فاخذ المشيعون اذ ذاك يقتربون واحداً
واحداً من المطران وابن اخيه بصبرونها ويوأسونها
بمستعذبات الكلام ، اما انا فبقيت واقفاً منفرداً وحدي
وليس من يعزيني على مصيبتى كأن سلمى وطفلها لم يكونا
اقرب الناس اليّ

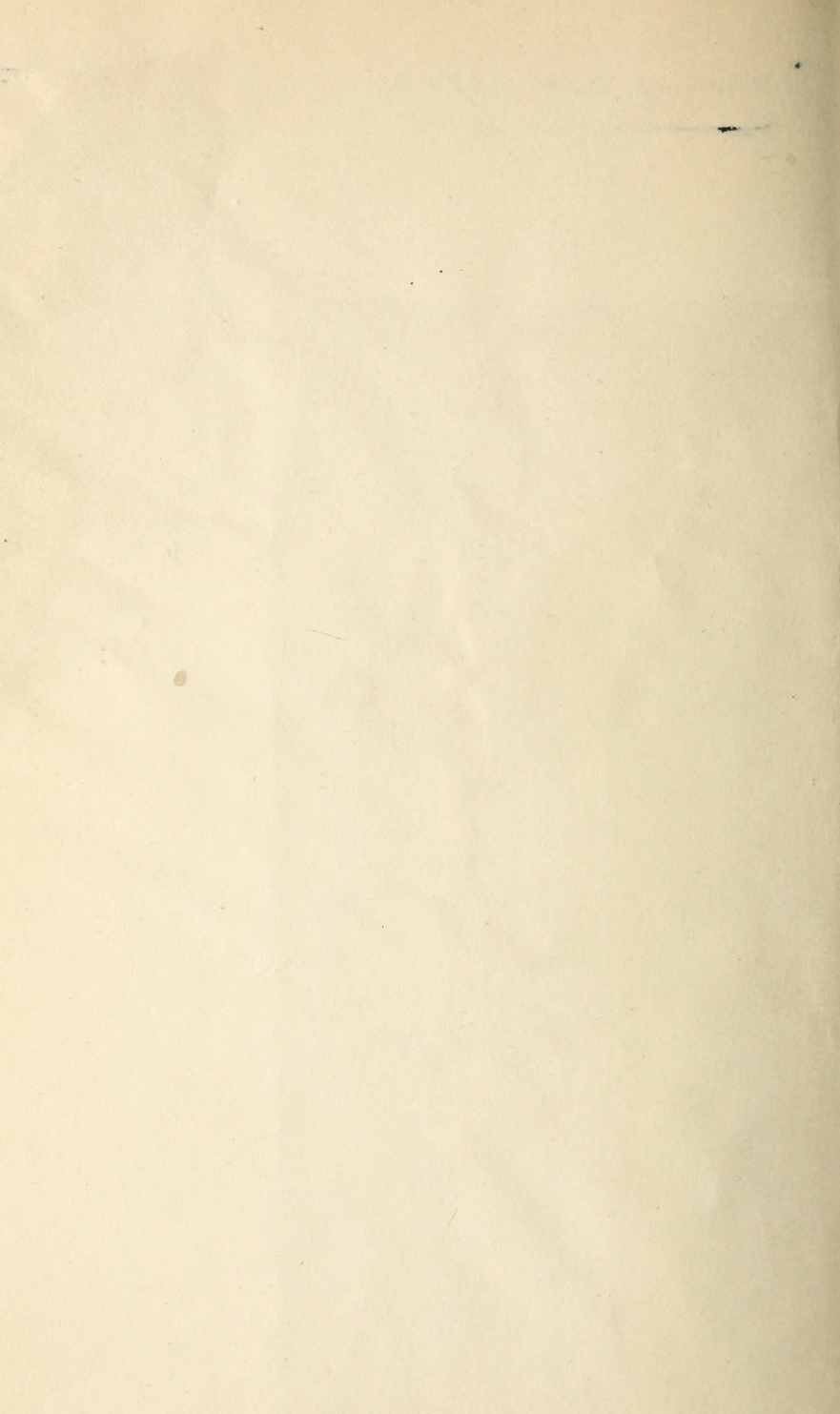
عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر
الجديد وفي يده رفشه ومحفره ، فدنوت منه وسألته قائلاً
« أتذكر اين قبر فارس كرامه »

فنظر اليّ طويلاً ثم اشار نحو قبر سلمى وقال « في
هذه الحفرة قد مددت ابنته على صدره ، وعلى صدر ابنته
قد مددت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعتُ التراب بهذا
الرفش »

فاجبته « وفي هذه الحفرة ايضاً قد دفنت قلبي ايها
الرجل فما اقوى ساعديك »

ولما تواری حفر القبور وراء اشجار السرو خانني الصبر
والتجلد فارتميت على قبر سلمى ابكيها وارثيها

تمت



January 28 - 1912

Miss Mary E. Haskell

314 Marlboro' St.

Boston

Mass

Personal

From G. Haven
G. Haven - St. Marks
51 W. 10th Street
New York

